

مناظرات مع الشيطان «٢»

١٠ ر.س

حجة إبليس

تأليف

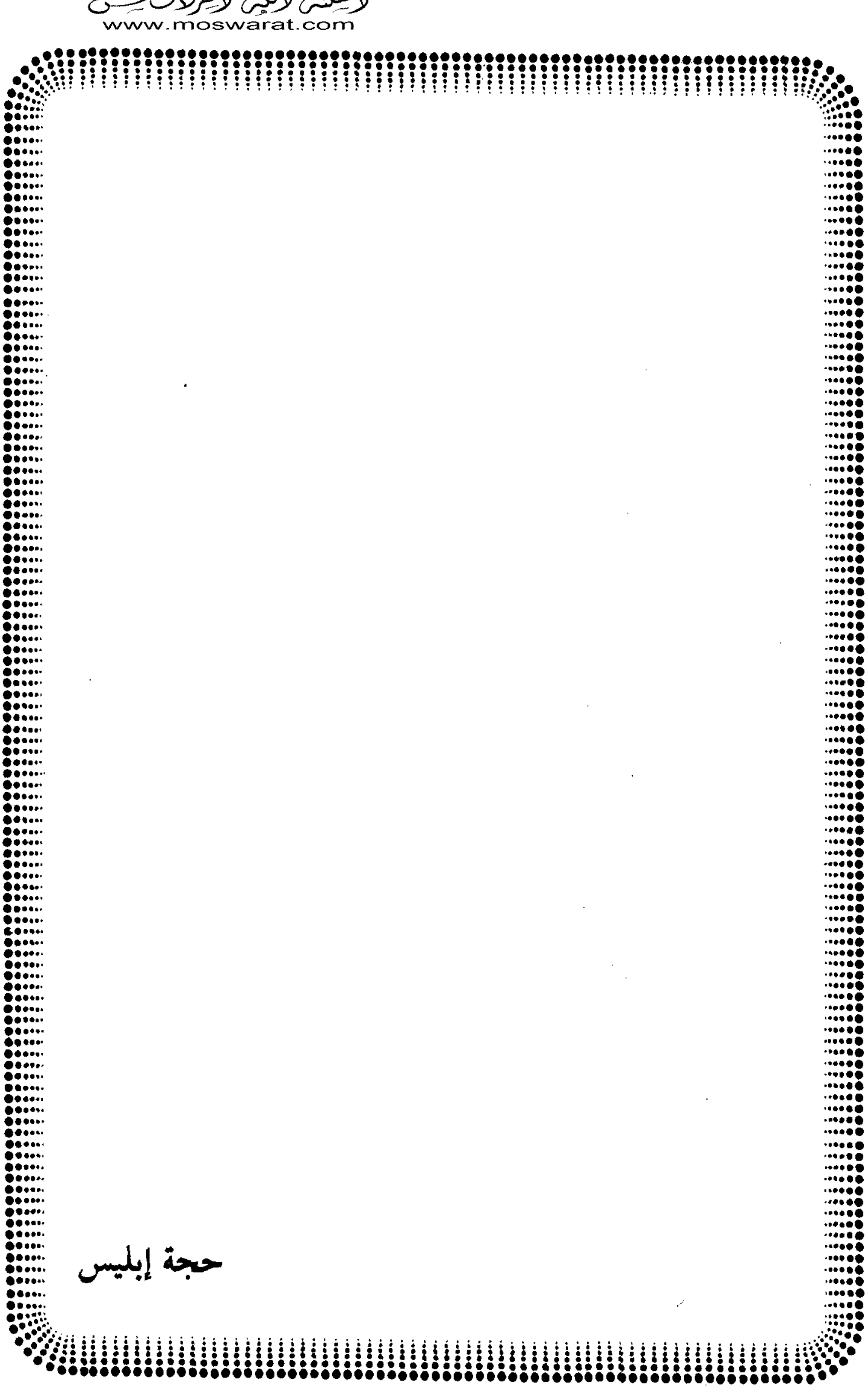
شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي بن قيم الجوزية
المتوفى سنة ٧٥١ هـ رحمه الله تعالى

قدم لها وضبط نصها وآلف بينها وخرج أحاديثها

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

دار ابن الجوزي


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



حجة إبليس

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ - ١٩٩١م



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية

الدمام : شارع ابن خلدون ت: ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب: ٢٩٨٢ الرمز البريدي: ٣١٤٦١
الاحساء : الهفوف - شارع الجامعة
ص.ب: ١٧٨٦



مناظرات مع الشيطان

(٢)

حجة إبليس

تأليف

شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي

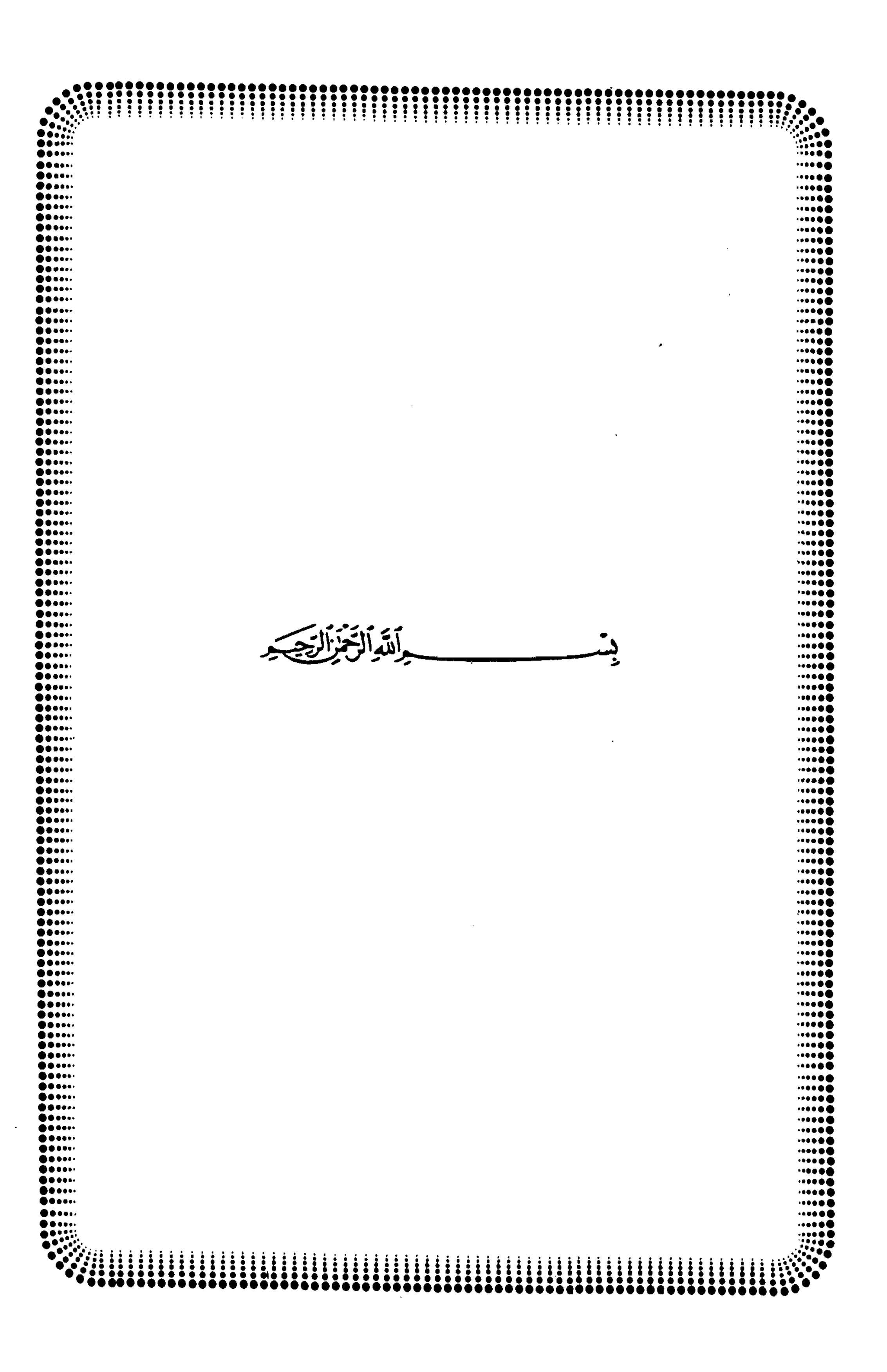
ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١هـ رحمه الله تعالى

قدم لها وضبط نصها وآلف بينها وخرج أحاديثها

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

إنَّ الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد؛ فإنه ينبغي أن تعلم أيها العبد أن عدوَّك إبليس ـ لعنه الله ـ الذي شغله التَّلبيس هو أول من التبس عليه الأمر، فلَبَّسَ على نفسه، حيث أعرض عن الأمر الإلهي الصريح إلى رأيه الفاسد الكسيح، فأخذ يفاضل بين الأصول، وزعم أنه يجول ويصول؛ كما أخبر عنه العليم الحكيم:

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾ [الأعراف: ١١ ـ ١٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنونٍ . والجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّموم . وإذ قالَ رَبُّكَ للملائِكَةِ إنِّي خالِقٌ بَشراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمإٍ مَسْنونٍ . فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ روحي فَقعُوا لَهُ سَاجِدينَ . فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعونَ . إلاَّ إبْليسَ أَبى أَنْ يكونَ مَعَ السَّاجِدينَ . قالَ يا إبْليسُ ما لَكَ أَلَّا تَكونَ مَعَ السَّاجِدينَ . قالَ لَمْ أَكُنْ لأسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنونٍ﴾ [الحجر: ٢٦ - ٣٣].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿وإذ قُلْنا للمَلائِكَةِ اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليسَ قَالَ أأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ [الإسراء: ٦١].

وقال عزَّ وجل: ﴿إذْ قَالَ رَبُّكَ للمَلائِكَةِ إنِّي خَالِقٌ بَشراً مِنْ طِينٍ . فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقعُوا لَهُ ساجِدينَ . فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعونَ . إلاَّ إبْليسَ اسْتَكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافِرينَ . قالَ يا إبْليسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالينَ . قالَ أَنا خَيْرٌ مِنهُ خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طينٍ﴾ [صٓ: ٧١ - ٧٦].

إذن؛ هٰذه حجة إبليس الزائغة التي قادتهُ إلى الاعتراض على الحكمة الإلٰهية البالغة، فأردف يقول: ﴿قَالَ أَرأَيْتَكَ هٰذا الَّذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَني إلى يَوْمِ القِيامَةِ لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلاَّ قَليلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

إن مصدر هٰذه المعارضة الشيطانية كبر واستكبار عن قبول الحق ممَّن يرون أنهم خير وأعلم منهم.

وهٰذا شأن النفوس الجاهلة بربها، الظالمة لنفسها، إذا كان عندها شيء من علم قد تميَّزت به عمَّن هو أجهل منها، وحصل لها به نوع رئاسة

ومـال، فإذا جاءهـا من هو خير منهـا وأعلم بحيث تمحى رسـوم علومها ومعارفها في علمه ومعرفته؛ عارضته حسداً بما عندها من العلم، وطعنت فيمـا عنده بأنواع المطاعن، ومن وقف على أصول مطاعنهم ومصدرها؛ تبين له أنها نشأت من أصلين: كبر عن اتباع الحق، وهوى معمي للبصيرة.

وبذلك أهان اللعين نفسه من حيث أراد إكرامها، وأذلها من حيث أراد عزَّها، وحقَّرها من حيث أراد تعظيمها... والجاهل عدوٌّ نفسه... فطرد من الجنـة، وأبعد من رحمة الله، وحقت عليه اللعنة، وكتب عليه الصغـار؛ **﴿قَالَ فاهْبِطْ مِنْها فَما يَكونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فيها فاخْرُجْ إنَّكَ مِنَ الصَّاغِرينَ﴾** [الأعراف: ١٣].

فلما رأى عدو الله أنه قد أُصيب من معارضة الوحي، وحال الكبر بينه وبين الندم وطلب الإقالة، وعلم أنه لا شيء أبلغ في مناقضة الوحي والشرع وإبـطاله من معارضته بالآراء والأهواء؛ لقَّن حزبه حجته، ودعاهم لاتِّباع محجته، فطفقوا يخصفون عليها من زخرف القول غُروراً، وقالوا من تلقاء أنفسهم منكـراً من القـول وزوراً، فمـركبهـا القيل والقال، والشك وكثرة الجدال، ليس لها حاصل من يقين يعوَّل عليه، ولا معتقد مطابق للحق يرجع إليه، فهم في شكهم يعمهون، وفي حيرتهم يتردَّدون، نبذوا الوحي وراءهم ظهـريّاً كأنهم لا يعلمـون، واتَّبعـوا ما تتلوا الشياطين على ألسنة أسلافهم من أئمة الضلال، فكانت هذه المعارضة ميراث بالتعصيب من الذين ذمهم الله في كتابه بجدالهم في آياته بغير سلطان وبغير علم.

﴿وكَـذٰلـكَ جَعَلْنـا لِكُـلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَياطينَ الإنْسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً ولَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلوهُ فَذَرْهُمْ وما

يَفْتَرونَ . وَلِتَصْغَى إليهِ أفْئِدَةُ الَّذينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخِرَةِ ولِيَرْضَوْهُ ولِيَقْتَرِفوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ . أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغي حَكَماً وهُو الَّذي نَزَّلَ إليكُمُ الكِتابَ مُفَصَّلاً والَّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بالحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ المُمْتَرينَ . وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكلماتِهِ وهُو السَّميعُ العَليمُ . وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ في الأرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصونَ . إنَّ رَبَّكَ هُو أَعلَمُ بمَنْ ضَلَّ عَن سَبيلِهِ وهُو أَعلمُ بالمُهْتَدينَ﴾ [الأنعام: ١١٢ - ١١٧].

ومن المعلوم أن وحي الشياطين إنما هو شبه عقلية، فقد أوحى إبليس إلى تلامذته وإخوانه من الشُّبهات العقلية الخيالية ما يعارض به الوحي، وأوهم أصحابه وأحبابه أنها قواطع عقليَّة، فحال بينهم وبين الهدى واليقين، وأخرجهما منهما كالشعرة من العجين، وأحالهم على منطق اليونان وسفسطة الرومان وقرمطة أهل الأوثان، وقال لهم: تلك علوم قديمة، صقلتها العقول والأذهان، ومرَّت عليها القرون والأزمان، فإن قدمتم الوحي عليها فسدت عقولكم.

قالَ تعالى: ﴿وإنَّ الشَّياطينَ لَيُوحُونَ إلى أَولِيائِهِمْ لِيُجادِلُوكُمْ وإنْ أَطَعْتُموهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وتمخَّضَ وحيُ الشيطان، فولد مناظرة ذات أسولة سبعة، زعم أتباعه أنها حصلت بينه وبين الملائكة!

وقد اضطرب الناس في الجواب على تلك الأسولة، وهدى الله أهل السنة والجماعة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه؛ إنه يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم.

ولقد صاغ جوابهم الكافي ودواءهم الشافي العالم الرباني شيخ الإسلام الثاني أبو بكر محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الشهير بابن قيم الجوزية[1] في مواطن عدة من كتابه القيم الموسوم بـ «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»، فرأيت أن أجمعها وأرتبها في رسالة مستقلة، راجياً من الله العون والسداد، وأن يهدينا بها سبل الرشاد، وأن يدَّخر لنا أجرها إلى يوم التناد.

ooooo

(١) أغنت شهرته عن ترجمته، وقد أفردها كثيرون بالتصنيف، وخيرها من حيث استقصاء آثاره وتحليل منهجه والرد على تشويشات خصومه ما كتبه الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد في كتابه الموسوم بـ «ابن قيم الجوزية؛ حياته وآثاره»، طبع مكتبة المعارف الرياض.



رفع الالتباس عن حجية القياس

ذهب قوم إلى القول بأن حجة إبليس هي القياس، فهو أول مَن قاس، ونقلوا في ذلك قول الحسن البصري: «قاس إبليس وهو أول مَن قاس»[1] وقول محمد بن سيرين: «أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس»[2]، وبنوا على ذلك نفيهم للقياس مطلقاً! فأبعدوا النجعة؛ لأن قياس إبليس خطأ وخاطىء كما بينه العلماء جملةً وتفصيلاً.

ـ فمن حيث الجملة:

قال ابن جرير الطبري رحمه الله في «تفسيره» (٨ / ٩٧ ـ ٩٧) مبيناً وجه قول الحسن وابن سيرين: «. . . ولذلك كان الحسن وابن سيرين يقولان: **أول من قاس إبليس؛ يعنيان بذلك القياس الخطأ**، وهو هذا الذي

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧ / ٩٨).
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٢١٢): «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٧ / ٩٨).
وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٢١٢): «إسناده صحيح».

ذكرنا من خطإ قوله وبعده عن إصابة الحق في الفضل الذي خص الله به آدم على سائر خلقه؛ من خلقه إياه بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاده له الملائكة، وتعليمه أسماء كل شيء، مع سائر ما خصه به من كرامته، فضرب عن ذٰلك كله الجاهل صفحاً، وقصد إلى الاحتجاج بأنه خلقه من نار وخلق آدم من طين، وهو في ذٰلك أيضاً له غير كفء لو لم يكن لآدم من الله جل ذكره تكرمة شيء غيره، فكيف والذي خص به من كرامته يكثر تعداده ويمل إحصاؤه؟!».

ـ وأما من حيث التفصيل؛ فمن أوجه عديدة؛ منها:

أولاً: هو قياس مع وجود النص:

قال ابن الجوزي رحمه الله في «زاد المسير» (٣ / ١٧٤): «قال العلماء: **وقع الخطأ من إبليس حيث قاس مع وجود النص**، وخفي عليه فضل الطين على النار».

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله في «الصواعق المرسلة» (٣ / ١٠٠٢): «في بيان فساد معقول الشيخ الذي عارض به الوحي، وذٰلك من وجوه: أحدها أنه **قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله؛ كان قياساً باطلاً**، ويسمى قياساً إبليسيّاً؛ فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل، وتقديمه عليه، ولهٰذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته، وقد بيَّنَّا فيما تقدم أنه ما عارض أحدٌ الوحي بعقله إلا أفسد الله عليه عقله، حتى يقول ما يضحك منه العقلاء».

وقال ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (١ / ٧٢) بعد أن ذكر

قولي الحسن وابن سيرين رحمهما الله: «ومعنى هٰذا أنه نظر في نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم، فرأى نفسه أشرف من آدم، فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود، **والقياس إذا كان مقابلاً بالنص؛ كان فاسد الاعتبار**».

ثانياً: قياس مع الفارق:

قال ابن قيم الجوزية رحمه الله في «الصواعق المرسلة» (٣ / ١٠٠٢ ـ ١٠٠٣): «إن قوله: ﴿**أنا خيرٌ منهُ**﴾ كذب، ومستنده في ذٰلك باطل؛ **فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى؛ فإن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهٰذا من كمال قدرته سبحانه**، ولهٰذا كان محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسل أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة[1] وإن كانت مادتهم نوراً ومادة البشر تراباً، فالتفضيل ليس بالمواد والأصول، ولهٰذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيراً وأفضل عند الله ممَّن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم. وهٰذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثاً في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الإيمان والتقوى، وهي التي أبطلها الله عز وجل بقوله: ﴿**يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثى وجَعَلْناكُمْ شُعوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٣]»أ. هـ.

قلت: ولو كانت عند عدو الله مسكة عقل؛ لاعتبر بسجود الملائكة

---

(١) سيأتي بيانه (ص ٤٤).

الذين هم أشرف منه مادة.

قال الشوكاني رحمه الله في «فتح القدير» (٢ / ١٩١ ـ ١٩٢) بعد بيان فساد حجته: «ولولا سبق الشقاوة، وصدق كلمة الله عليه؛ **لكان له بالملائكة المطيعين لهٰذا الأمر أسوة وقدوة، فعنصرهم النوري أشرف من عنصره الناري**».

ثالثاً: قياس أساسه الظن:

قال ابن جرير رحمه الله في «تفسيره» (٨ / ٩٧): «والداعي له إلى خلاف أمر ربه في ذٰلك: أنه أشد منه يداً، وأقوى منه قوة، وأفضل منه فضلاً؛ لفضل الجنس الذي منه خلق ـ وهو النار ـ من الذي خلق منه آدم ـ وهو الطين ـ، فجهل عدو الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب، إذ كان معلوماً أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب والارتفاع علوّاً، والذي في جوهرها من ذٰلك هو الذي حمل الخبيث بعد الشقاء الذي سبق له من الله في الكتاب السابق على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، فأورثه العطب والهلاك، وكان معلوماً أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبت، وذٰلك الذي في جوهره من ذٰلك كان الداعي لآدم بعد السعادة التي كانت سبقت له من ربه في الكتاب السابق إلى التوبة من خطيئته ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة».

وأقره البغوي في «تفسيره» (٢ / ١٥٠ ـ ١٥١).

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١ / ٧٢): «**ثم هو فاسد في نفسه؛ فإن الطين أنفع وخير من النار**؛ فإن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة

والنمو، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والإحراق».

وقال في «تفسيره» (٢ / ٢١١): «**فأخطأ قبَّحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً**؛ فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت والطين محل الثبات والنمو والزيادة والإصلاح، والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة، ولهٰذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة».

قلتُ: وقد اتفق العقلاء على أن الطين أشرف من النار لأوجه عديدة، وقد أوعب في استقصائها ابن القيم في «الصواعق المرسلة» (٣ / ١٠٠٤ ـ ١٠٠٨)، وانظرها في هٰذه الرسالة (ص ٤٧ ـ ٥١).

رابعاً: خفاء وجه تكريم الله لآدم عليه الصلاة والسلام:

قال ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (١ / ٧٢): «**ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ونفخه فيه من روحه، ولهٰذا أمر الملائكة بالسجود له؛ كما قال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنونٍ . فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لهُ ساجِدينَ . فَسَجَدَ الملائِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعونَ . إلَّا إبْليسَ أَبى أَنْ يكونَ مَعَ السَّاجِدينَ . قالَ يا إبْليسُ ما لَكَ أَلَّا تَكونَ مَعَ السَّاجِدينَ . قالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنونٍ . قالَ فاخْرُجْ مِنها فإِنَّكَ رَجيمٌ . وإنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إلى يَوْمِ الدِّينِ﴾**.

استحقَّ هٰذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم، وازدراؤهُ بهِ،

وترفُّعه عليه؛ مخالفة الأمر الإلٰهي، ومعاندة الحق في النص على آدم على التعيين، وشَرَع في الاعتذار بما لا يجدي عنه شيئاً، وكان اعتذاره أشدَّ من ذنبه؛ كما قال تعالى في سورة سبحان: ﴿**وإذ قُلْنا للمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلَّا إبْليسَ قالَ أأَسْجُدُ لِمَنْ خلَقْتَ طِيناً . قالَ أَرأَيْتَكَ هٰذا الَّذي كَرَّمْتَ عَليَّ لَئِنْ أَخَّرْتني إلى يَوْمِ القِيامَةِ لأحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إلَّا قَليلاً . قالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُم فإنَّ جَهَنَّمَ جَزاؤكُمْ جَزاءً مَوْفوراً . واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وأَجْلِبْ عليهِمْ بِخَيْلِكَ ورَجِلِكَ وشارِكْهُمْ في الأمْوالِ والأولادِ وعِدْهُمْ ومَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلَّا غُروراً . إنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ وكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾»[1] اهـ.

ولـذٰلك فينبغي أن يحذر العبد منه أشد الحذر متى سوَّل له أمراً، وليقل له حين يأمره بالسوء: كيف يتضح صواب النصح للآخرين لمن لا ينصح نفسه؟! ثم كيف أثق بنصيحة عدو؟! فانصرف، فما لقولك منفذ. فلا يبقى إلا أن يستعين بالنفس؛ لأنه يحث على هواها، فليستحضر العقل إلى بيت الفكر في عواقب الذنب، لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته، فيهزم عسكر الهوى والنفس.

فإذاً تبيَّن مراد الحسن وابن سيرين، «وهـو يدل على أن القياس أصل من أصول الدين، وعصمة من عصم المسلمين، يرجع إليه المجتهدون، ويفزع إليه العلماء العاملون، فيستنبطون به الأحكام، وهٰذا قول الجماعة الذين هم حجة، ولا يلتفت إلى من شذ عنها، وأما الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهي عنه؛ فهو ما لم يكن على هٰذه الأصول المذكورة؛ لأن

---

(١) وقد سبق كلام ابن جرير (ص ١١).

ذلك ظن ونزغ من الشيطان؛ قال تعالى: ﴿**ولا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾، وكُلُّ ما يورده المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذم القياس؛ فهي محمولة على هٰذا الفرع من القياس المذموم، الذي ليس له في الشرع أصل معلوم، وتتميم هٰذا الباب في كتب الأصول»[1].

ooooo

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤ / ١٧٢ - ١٧٣).

وقد بسط ابن قيم الجوزية مسألة القياس في كتابه «إعلام الموقعين»، فعض عليه بالنواجذ؛ فإنه الغنيمة الباردة.

وانظر ما كتبه الأخ الدكتور عمر سليمان الأشقر في رسالته المفيدة: «القياس بين مؤيديه ومعارضيه»، نشر الدار السلفية، الكويت.



أصل الرسالة ومنهج التحقيق

١ ـ أصل هٰذه الرسالة مناظرة بين الملائكة وإبليس موجودة عند أهل الكتاب، ونقلها عنهم الشهرستاني رحمه الله في «الملل والنحل» (١ / ١٦ ـ ١٨).

٢ ـ وعنه نقلها ابن قيم الجوزية رحمه الله؛ كما في «مختصر الصواعق المرسلة» للموصلي (١ / ٢٩٢ ـ ٢٩٦)، وهٰذا المختصر أصله «الصواعق المرسلة» لابن قيم الجوزية، ولكن هٰذا الجزء غير موجود فيه، وإنما استدرك من «المختصر».

٣ ـ أجوبة ابن قيم الجوزية على الأسئلة السبعة موجودة من الوجه الأول إلى منتصف الوجه الخامس عشر في نهاية الجزء الرابع من «الصواعق المرسلة» (٤ / ١٥٣٨ ـ ١٥٧٥)، وقسم آخر موجود (٣ / ٩٩٨ ـ ١٠٠٨)، وأما بقية الأوجه؛ فهي في «مختصر الصواعق المرسلة» (١ / ٣٠٣ ـ ٣٨٠).

٤ ـ وقد جمعت الأوجه المشار إليها، ورتبتها، ورأيت في بعضها خروجاً من المؤلف عن المقصود ـ وهو ليس من باب الحشو، بل من باب

الاستطراد في بعض المواطن ـ فحذفته، وسميتها «حجة إبليس»، ونظمتها في سلسلة «مناظرات مع الشيطان».

٥ ـ ضبطت من النص ما هو مُشكل لئلا يقع القارىء فيما يُشكِل.

٦ ـ عزوت الآيات القرآنية إلى سورها في كتاب الله.

٧ ـ خرجت الأحاديث النبوية والآثار حسب قواعد الصناعة الحديثية.

٨ ـ فسرت بعض الكلمات الغريبة.

٩ ـ علقت على بعض المواطن إتماماً لفائدة أرى أهميتها.

١٠ ـ كتبت مقدمة في بيان أهمية الرسالة، وأخرى في تصحيح شبهة.

١١ ـ صنعت فهارس علمية ليصل القارىء إلى بغيته بيسر.

هٰذا ما تيسر لي عمله في هٰذه الرسالة الطيبة حسب الوقت والجهد، فإن أصبت ووفقت؛ فمن الله، منه العون، وعليه التكلان، وإن أخطأت؛ فمن نفسي والشيطان، وأرجو الله أن يغفر لي خطئي وعمدي وكل ذٰلك عندي.

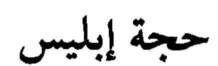
وعلى الله قصد السبيل.

وكتبه

أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي

○○○○○

حُجَّةُ إبْليس



حجة إبليس

قالَ(١) ـ كما نُقِل عنه(٢) ـ :

«إني سلَّمتُ أن الباري ـ إلٰهي وإلٰه الخلق ـ عالمٌ، قادرٌ، ولا يُسأل عن قدرته ومشيئته، وإذا أراد شيئاً؛ قال له: ﴿كُنْ فَيَكونُ﴾(٣)، وهو حكيمٌ؛ إلا أنه يتوجَّه على مساق حكمته أسئلةٌ سبعةٌ:

أولها: قد علم قبل خَلْقي أيَّ شيء يصدُر عني ويحصل، فلِمَ خلقني أولاً؟ وما الحكمة في خَلْقه إياي؟

الثاني: إذ خَلَقَني على مقتضى إرادتِه ومشيئتِه؛ فلم كلَّفَني بمعرفتِه وطاعتِه؟ وما الحكمةُ في التكليف بعد ألا ينتفع بطاعته ولا يتضرر بمعصيته؟

---

(١) أي: إبليس لعنه الله.

(٢) وردت هٰذه المناظرة عند أهل الكتاب بين إبليس والملائكة. وانظر: «الملل والنحل» لأبي الفتح الشهرستاني (١ / ١٦).

(٣) انظر: البقرة: ١١٧، آل عمران: ٤٧، الأنعام: ٧٣، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، يس: ٨٢، غافر: ٦٨.

الثالث: إذ خلقني وكلَّفني فالتزمتُ تكليفَه بالمعرفةِ والطاعةِ، فعرفتُ وأطعتُ؛ فلم كلَّفني بطاعةِ آدمَ والسُّجود له؟ وما الحكمةُ في هٰذا التكليف على الخصوص بعد أن لا يزيد ذٰلك في طاعَتي ومعرِفتي؟

والـرابع: إذ خَلَقني وكلَّفني على الإطلاقِ، وكلَّفني هٰذا التكليف على الخُصوص، فإذا لم أسجدْ؛ لعَنَني وأخرجَني من الجنَّة؛ ما الحكمةُ في ذٰلك بعد إذ لم أرتَكِبْ قبيحاً إلا قولي لا أسجُدُ إلَّا لك؟

الخامس: إذ خَلَقني وكلَّفني مُطلقاً وخُصوصاً، ولم أطِعْ، فلَعَنني، وطردني، فلم طرّقني[1] إلى آدم حتى دخلت الجنَّةَ ثانياً، وغررتُه بوسوستي، فأكل من الشجرةِ المنهي عنها، وأخرجه من الجنةِ معي؟ وما الحكمةُ في ذٰلك بعدَ أن لو منعني من دخول الجنة؛ استراح منِّي آدمُ، وبقي خالداً في الجنَّة؟

والسَّادس: إذ خَلَقني وكلَّفَني عُموماً وخُصوصاً ولعنني، ثم طرَّقَني إلى الجنة، وكانت الخصومة بيني وبين آدم، فلم سلَّطني على أولادِه حتى أراهم من حيث لا يرونني، وتؤثر فيهم وسوستي، ولا يؤثر فيَّ حولُهم وقوَّتُهم وقُدْرَتُهم واستطاعَتُهم؟ وما الحكمةُ في ذٰلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون مَن يجتالُهم عنها، فيعيشوا طاهرين سامِعين مطيعين؛ كان أحرى وأليق بالحكمة.

والسابع: سلَّمتُ هٰذا كلَّه، خَلَقني وكلَّفني مُطلقاً ومقيَّداً، وحيث لم

---

(١) أي: جعل لي طريقاً إلى آدم بالوسوسة والإغراء والتزيين. وانظر كتابي: «مقامع الشيطان»، نشر دار ابن الجوزي.

أطع لعَنني وطردَني ومكَّنني من دخول الجنَّة وطرَّقني، وإذ عملت عملي أخــرجني ثم سلَّطني على بني آدم، فلم إذ استَمْهَلْتُــه أمهَلَني؟ فقلتُ: ﴿فأَنْظِرْنِي إلى يومِ يُبْعَثونَ﴾[1]، فقال: ﴿فإنَّك مِن المُنْظَرِينَ . إلى يوْمِ الوَقْتِ المَعْلومِ﴾[2]؟ وما الحكمة في ذٰلك بعد أن لو أهلكني في الحال؛ استراح الخلق مني، وما بقي شرٌّ في العالم؟ أليس بقاءُ العالم على نظام الخير خيراً من امتزاجه بالشر؟».

قال: «**فهٰذه حُجَّتي على ما ادَّعيتُه في كلِّ مسألةٍ**».

قال شارحُ «الإنجيل»:

«فأوحى اللهُ إلى الملائكة: قولوا له: فإنَّك في مسألتك الأولى أني إلٰهك وإلٰه الخلق غير صادق ولا مُخلص، إذ لو صدَّقت أنِّي ربُّ العالمين؛ ما احتكمتَ عليَّ بـ (لِمَ)، فأنا الله الذي لا إلٰه إلا أنا، لا أُسأَلُ عمَّا أفعلُ، والخلق مسؤولون».

قال[3]: «هٰــذا مذكــورٌ في «التوراةِ»، ومسطورٌ في «الإنجيل» على الوجهِ الذي ذكرتُه، وكنتُ بُرهةً من الزمان أتفكَّر وأقولُ: من المعلوم الذي لا مِرْيَةَ فيه أنَّ كلَّ شُبهة وقعت لبني آدم فإنما وقعت من إضلال الشَّيطان، ووســاوسُــه نشــأت من شُبُهاتِه، وإذا كانت الشُّبُهات محصورة في سبع؛ عادت كبار البدع والضلال إلى سبع، ولا يجوز أن تعدو شُبُهاتُ فرق أهل الزيغ والكفر هٰذه الشبهاتِ، وإن اختلفت العبارات وتباينت الطرق؛ فإنها

(١) صٓ: ٧٩.

(٢) صٓ: ٨٠ ـ ٨١.

(٣) أي: الشهرستاني؛ كما في كتابه «الملل والنحل» (١ / ١٨).

بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذر، وترجع جملتها إلى: إنكار الأمر بعد الاعتراف بالحق، وإلى الجنوح إلى الهوى والرأي في مقابلة النص، والذين جادَلوا نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً وموسى وعيسى ومحمداً ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ كلهم نسجوا على منوال اللعين الأول في إظهار شبهاته[1]، وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم، وجَحْدِ أصحاب التكاليف والشرائع بأسرهم، إذ لا فرق بين قولهم: ﴿أَبَشَرٌ

(١) لأنه كبيرهم الذي بدأ المعركة، وهم جنده الخاطئون، وحزبه الخاسرون.

وبه يتبين أن سبيل المجرمين واحدة على مر العصور؛ كما في قوله تعالى: **﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا﴾** [آل عمران: ٦١].

وقوله عز وجل: **﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله﴾** [الأنفال: ٥٢].

وقوله تبارك اسمه: **﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا﴾** [الأنفال: ٥٤].

وقوله تبارك وتعالى: **﴿مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾** [غافر: ٣١].

وحدُّهم الطغيان ضد الإيمان: **﴿أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾** [الذاريات: ٥٣].

فصدروا عن قول واحد، ورموا الحق عن قوس واحدة: **﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بيَّنَّا الآيات لقوم يوقنون﴾** [البقرة: ١١٨].

فليدرك موكب الإيمان وحزب الرحمن كيد الشيطان؛ لئلا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير.

﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ [الأنفال: ٧٣].

ولبسط هذه الحقائق موضع آخر إن شاء الله.

يَهْدُونَنا﴾[1]، وبين قوله: **﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾**[2].

وعن هٰذا صار مفصل الخلاف، ومحزُّ الإشكال والافتراق؛ كما هو في قوله: **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤمِنُوا إِذ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسولاً﴾**[3]،

فبيَّن أن المانع من الإيمان هو هٰذا المعنى؛ كما قال للمتقدم الأول: **﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنا خَيْرٌ منهُ﴾**[4]، وقال المتأخِّرُ[5] من ذُرِّيَّتِه[6] كما قالَ المتقدِّم: **﴿أَمْ أَنا خَيْرٌ مِنْ هٰذا الَّذي هُو مَهينٌ ولا يَكَادُ يُبينُ﴾**[7].

وكـذٰلك لو تعقَّبنا أحوال المتقدمين منهم؛ وجدناها مطابقة لأقوال المتـأخـرين: **﴿كـذٰلـك قالَ الَّـذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْـلَ قَوْلِهِمْ تَشَـابَهَتْ قُلوبُهُمْ﴾**[8]، **﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾**[9].

فاللعين الأول لمَّا حكَّم العقل على مَن لا يُحكَّم عليه العقل؛ أجرى حكم الخالق في الخلق، وحكّم الخلق في الخالق، والأول غلوٌّ، والثاني

---

(١) التغابن: ٦.

(٢) الإسراء: ٦١.

(٣) الإسراء: ٩٤.

(٤) الأعراف: ١٢.

(٥) هو فرعون.

(٦) في الاتِّباع لا النسب؛ لأن المتقدم من الجن والمتأخر من الإنس.

(٧) الزخرف: ٥٢.

(٨) البقرة: ١١٨.

(٩) يونس: ٧٤.

تقصيرٌ، فثار من الشبهة الأولى مذاهب الحلولية[1] والتناسخية[2] والمشبهة[3] والغلاة من الرافضة، حيث غلوا في حق شخص من الأشخاص، حيث وصفوه بأوصاف الإله، وثار من الشبهة الثانية مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة، حيث قصروا في وصفه تعالى بصفات المخلوقين، والمعتزلة مشبهة الأفعال، والمشبهة مشبهة الصفات، وكل منها أعور[4]:

فإن مَن قال: يحسن منه ما يحسن منا، ويقبح منه ما يقبح منا؛ فقد شبَّه الخلق بالخالق.

ومَن قال: يوصف الباري بما يوصف به الخلق، أو يوصف الخلق بما يوصف به الخالق؛ فقد اعتزل عن الحق.

وسِنْخ[5] القدرية طلب العلة في كل شيء، وذلك من سِنْخ اللعين الأول؛ إذ طلب العلة في الخلق أولاً، والحكمة في التكليف ثانياً، والفائدة في تكليف السجود لآدم ثالثاً».

---

(١) قوم يزعمون أنه قد حصل لهم الحلول، وهو حلول الله بذاته في المخلوقات، ومن أشهر القائلين بالحلول: الحسين بن منصور الحلاج المقتول سنة ٣٠٩هـ.

(٢) هم القائلون بتناسخ الأرواح في الأجساد، والانتقال من شخص لآخر.

(٣) هم المشبهون لله تعالى بخلقه، فقالوا: له يد كيد المخلوق، ورجل كرجل المخلوق.

(٤) لأنهم ينظرون إلى النصوص فرادى، فكأنهم يبصرون بعين واحدة، والحق أن النصوص تؤخذ جملة واحدة؛ لأن بعضها يفسر بعضاً ويبينه.

(٥) السِّنْخ: هو الأصل في كل شيء.

ثم ذكر الخوارج والمعتزلة والروافض، وقال:

«رأيت بدء شبهاتهم كلها نشأت من شبهات اللعين الأول، وتلك في الأول مصدرها، وهٰذه في الآخر مظهرها، وإليه أشار التنزيل بقوله:

﴿ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ﴾[1].

وقد قال ﷺ:

(لَتَسْلُكُنَّ سبل الأمم قبلكم حذوَ القُذَّة بالقُذَّةِ والنعل بالنعل، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ؛ لدخلتموه)[2]» .

فهٰـذه[3] القصـة والمنـاظـرة هي من نقـل أهل الكتاب، ونحن لا نصدقها ولا نكذبها[4]، وكأنها ـ والله أعلم ـ مناظرة وضعت على لسان إبليس.

---

(١) البقرة: ٦٨.

(٢) حديث صحيح، وقد استوفيت الكلام على طرقه وشواهده في تخريج أحاديث «الوصية الصغرى» (ص ٣١ ـ ٣٦).

و(القُذَّة)؛ بضم القاف المعجمة؛ أي: ريش السهم.

(٣) من هنا بدأ كلام ابن قيم الجوزية وانتهى كلام الشهرستاني في «الملل والنحل» (١ / ٢٠).

(٤) إشارة إلى قوله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: **﴿آمَنَّا بالله وما أُنزل. . .﴾** الآية».

أخرجه البخاري (٨ / ١٧٠ و١٢ / ٥١٦ ـ فتح)، والبغوي في «شرح السنّة» (١ / ٤٦٩)؛ من حديث أبي هريرة.

وله شواهد:

عن أبي نملة الأنصاري، أخرجه: أبو داود (٣٦٤٤)، وأحمد (٤ / ١٣٦)، وابن =

وعلى كل حال؛ فلا بد من الجواب عنها؛ سواء صدرت منه، أو قيلت على لسانه، فلا ريب أنها من كيده، وقد أخبر الله سبحانه: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيطانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾[1].

فهٰذه الأسئلة والشبهات من أضعف الأسئلة عند أهل العلم والإيمان، وإن صعب موقعها عند مَن أصَّل أصولاً فاسدة كانت سدّاً بينه وبين ردِّها، وأما مَن لم يؤصِّل غير كتاب الله وسنة رسوله؛ فهٰذه الأسئلة عنده من جنس أسئلة تلامذته وأصحابه التي يوردونها على الرسل وما جاؤوا به، وهي أسئلة فاسدة مبنية على أصول فاسدة، وقد افترقت طرق الناس في الأجوبة عنها أشد افتراق، وسلكوا في إبطالها كل طريق يخطر بالبال، ونحن نذكر طرقهم:

فقال المنجمون وزنادقة الطبيعيين والفلاسفة:

لا حقيقة لآدم ولا لإبليس ولا لشيء من ذٰلك، بل لم يزل الوجود هٰكذا، ولا يزال نسلاً بعد نسل وأمة بعد أمة، وإنما ذٰلك أمثال مضروبة لانفعال القوى النفسانية الصالحة لهٰذا البشر، وهٰذه القوى هي المسمّاة في الشرائع بالملائكة، واستعصاء القوى الغضبية والشهوانية عليه هي المسماة بالشياطين، فعبَّر عن خضوع القوى الفاضلة بالسجود، وعبَّر عن إباء القوى الشريرة الفاسدة بالإباء والاستكبار وترك السجود.

= حبان (١١٠ ـ موارد)، والبغوي في «شرح السنة» (١ / ٢٦٨).

وعن جابر: أخرجه أحمد (٣ / ٣٨٧).

(١) النساء: ٧٦.

قالـوا: والحكمة الإلٰهية اقتضت تركيب الإنسان على هٰذا الوجه، وإسكـان هٰذه القـوى فيه، وانقياد بعضهـا له، وإباء بعضها، فهٰذا شأن الإنسان، ولو كان على غير هٰذا التركيب؛ لم يكن إنساناً.

قالوا: وبهٰذا تندفع الأسئلة كلها، ويظهر بطلانها، وأنها بمنزلة أن يقال: لم أحوج الإنسان إلى الأكل والشرب واللباس؟ ولمَّا أحوجه إليه؛ فلم جعله يبول ويتغوَّط ويتمخط؟ ولم جعله يمرض ويهرم ويموت؟ فإن هٰذه الأمور من لوازم النشأة الإنسانية التي لو قُدِّر ارتفاعها؛ لارتفعت هٰذه النشأة.

فهٰـذه الـطائفـة رفعت القـواعـد من أصلها، وأبطلت آدم وإبليس والملائكة، وردَّت الأمر إلى مجرَّد قوى نفسانية وأمور معنوية.

وقالت الجبرية ومنكرو الحكم والتعليل:

هٰذه الأسئلة إنما ترد على مَن يفعل لعلَّة أو لغرض أو لغاية، فأما مَن لا علَّة لفعله ولا غاية ولا غرض، بل يفعل ما يفعله بلا سبب ولا غاية، وإنما مصدر مفعولاته محض مشيئة، وغايتها مطابقتها لعلمه وإرادته، فجاء فعله على وفق إرادته وعلمه، وعلى هٰذا؛ فهٰذه الأسئلة فاسدة كلها، إذ مبناها على أصل واحد، وهو تعليل أفعال مَن لا تُعَلَّل أفعاله، ولا يوصف بحسن ولا قبح عقليين، بل الحسن ما فعله، وما فعله فكلُّه حسن، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

قالوا: والقبح والظلم هو تصرُّف الإنسان في ملك غيره بغير إذنه، فأما تصرف المالك الحق في ملكه؛ من غير أن يكون تحت حجر حاجر،

أو أمر آمر، أو نهي ناهٍ؛ فإنه لا يكون ظلماً ولا قبيحاً.

فرفع هٰؤلاء الأسئلة من أصلها، وسدُّوا على أنفسهم طريق استماعها والجواب عنها، والتزموا لوازم هٰذا الأصل من إبطال الحكم والتعليل والأسباب والتحسين والتقبيح ووجوب شكر المنعم عقلاً، ومنعت لأجله أن يجب على الله شيء أو يحرم عليه شيء أو يقبح منه ممكن، بل كل ممكن فهو جائز عليه لا يقبح منه.

وقالت القدرية:

هٰذا لا يرِد على أصولنا، وإنما يرِد على أصول الجبرية القائلين بأن الله خالق أفعال العباد؛ طاعاتهم، ومعاصيهم، وإيمانهم، وكفرهم، وأنه قدَّر ذٰلك عليهم قبل أن يخلقهم، وعَلِمَه منهم، وخلَقَهم له، فخلق أهل الكفر للكفر، وأهل الفسوق للفسوق، وقدّر ذٰلك عليهم، وشاءه منهم، وخلقه فيهم، فهٰذه الأسئلة واردة عليهم.

وأما نحن؛ فعندنا أن الله سبحانه عرَّضهم للطاعة والإيمان، وأقدرهم عليه، ومكَّنهم منه، ورضيه لهم، وأحبَّه، ولكن هم اختاروا لأنفسهم الكفر والعصيان، وآثروه على الإيمان والطاعة، والله سبحانه لم يُكْرِهْهم على ذٰلك، ولم يُلْجِئْهم إليه، ولا شاءه منهم، ولا كتبه عليهم، ولا قدَّره، ولا خلقهم له، ولا خلقه فيهم، ولكنها أعمالٌ هم لها عاملون، وشرورٌ هم لها فاعلون، فإنما خلق إبليس لطاعته وعبادته، ولم يخلقه لمعصيته والكفر به.

وصرَّح قدماء هٰذه الفرقة بأنه سبحانه لم يكن يعلم من إبليس حين خلقه أنه يصدر منه ما صدر، ولو علم ذٰلك؛ لم يخلقه.

وأبى متأخروهم ذٰلك، وقالوا: بل كان سبحانه عالماً به وبشأنه وبخلقه؛ امتحاناً لعباده؛ ليظهر المطيع له من العاصي، والمؤمن من الكافر، وليثيب عباده على معاداته ومحاربته ومعصيته أفضل الثواب.

قالوا: هٰذه الحكمة اقتضت بقاءه حتى تنقضي الدنيا وأهلها.

قالوا: وأَمَرَه بالسجود؛ ليطيعَ، فيثيبَه، ويقربَه، ويكرمَه، فاختار لنفسه المعصية والكفر؛ من غير إكراهٍ للرب تعالى، ولا ألجأه إلى ذٰلك، ولا حال بينه وبين السجود، ولا منعه، ولا سلَّطه على آدم وذريته قهراً وإكراهاً لهم، وقد اعترف عدو الله بذٰلك، حيث يقول: **﴿وما كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿وما كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾**[2].

قالوا: فاندفعت تلك الأسئلة وبطلت، وظهر أنها تردُّ على أصول الجبرية لا على أصولنا.

وقالت الفرقة الناجية: حزب الرسول وأنصاره، وبنك[3] الإسلام، وعصابة الإيمان، الذين لم يتحيزوا إلى فئة غير سول الله ﷺ، ولم يذهبوا إلى مقالة غير ما دلَّت عليه سنته، ولم ينتسبوا إلى غيره بوجه من الوجوه:

كيف يطمع في الرد على عدو الله وإبطال قوله مَن قد شاركه في أصله أو في بعض شعبه؟! فإن عدو الله أَصَّلَ معارضة النص بالرأي، فترتب على تأصيله هٰذه الأسئلةُ وأمثالها، فمن عارض العقل بالنقل في أمرٍ من الأمور؛ فهو شريكه من هٰذا الوجه، فلا يتمكّن من الرد التام عليه.

---

(١) إبراهيم: ٢٢.

(٢) سبأ: ٢١.

(٣) أصل الشيء، وقيل: خالصه.

ولهٰـذا لما شاركه زنادقة الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين في هٰذا الأصل؛ أنكروا وجوده ووجود آدم والملائكة؛ فضلاً عن قصة أمره بالسجود وإبائه، وما ترتَّب عليها.

ولمـا أنكـرت الجبـرية الحكمة والتعليل والأسباب، وأبطلت هٰذا الأصـل بعقولها وآرائها؛ عجزوا عن جواب أسئلته، وسدُّوا على نفوسهم باب استمـاعهـا والجـواب عنها، وفتحوا باب مكابرة العقول الصريحة، وإنكار تحسين العقل وتقبيحه، وإنكار الأسباب والقوى والطبائع والحِكَم والغايات المحمودة التي لأجلها يفعل الرب ما يفعله، ويأمر بما يأمر به، وجوّزوا عليه أن يفعل كل شيء، وأن يأمر بجميع ما نهى عنه، وينهى عن كل ما أمر به، ولا فرق عنده ألبتة بين المأمور والمحظور، والكل[1] سواء في نفس الأمر، ولكنَّ هٰذا صار حسناً بأمره، لا أنه في نفسه وذاته حسن، وهٰذا صار قبيحاً بنهيه، لا أنه في نفسه وذاته قبيح.

ولما أصَّلت القدرية إنكار عموم قدرة الله سبحانه ومشيئته لجميع الكائنات، وأخرجت أفعال عباده خيرها وشرها عن قدرته ومشيئته وخلقه، وأثبتت لله سبحانه شريعة بعقولهم حكمت عليه بها، واستحسنت منه ما استحسنته من أنفسها، واستقبحت منه ما استقبحته من نفوسها، وعارضت بين الأدلة السمعية الدالة على خلاف ما أصَّلوه وبين العقل، ثم راموا الردَّ على عدو الله، فعجـزوا عن الردِّ التام عليه، وأجابت كل فرقة من هٰذه الفرق في الردِّ عليه بحسب ما وافقت فيه السمع والعقل.

---

(١) الراجح أن كل لا تدخل عليها (ال) التعريف.

وإنما يتمكن من الرد عليه كلَّ الرد مَن تلقَّى أصوله عن مشكاة الوحي ونـور النبـوة، ولم يؤصِّل أصلاً برأيه وعقله، وآراء الرجال وعقولهم، ولم يخرج من مشكاة الوحي، ولم يظهر من معدنه، بل تلقى أصوله كلها عن قول مَن لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

○ الوجه الأول:

فأول ذٰلك أنه علم أن هٰذه الأسئلة ليست من كلام الله الذي أنزله على موسى وعيسى؛ مخبراً بها عن عدوه كما أخبر عنه في القرآن بكثير من أقـوالـه وأفعـالـه، وإدخـال بعض أهـل الكتـاب لها في تفسير «التوراة» و«الإنجيل» هو كما تجد في المسلمين ـ وما بالعهد من قدم ـ من يدخل في تفسير القرآن كثيراً من الأحاديث والأخبار التي لا أصل لها والقصص المعلوم كذبها، وإذا كان هٰذا في هٰذه الأمة التي هي أكمل الأمم علوماً ومعارف وعقولاً؛ فما الظن بأهل الكتاب؟!

○ الوجه الثاني:

أن نقول لعدو الله: قد ناقضتَ في أسئلتك ما اعترفتَ به وسلَّمته غاية المنـاقضة، وجعلتَ ما أسلفتَه من التسليم والاعتراف مبطلاً لجميع أسئلتك، متضمِّناً للجواب عنها قبل ذكره.

وذٰلك أنك قلت: ﴿**رَبِّ بِما أَغْوَيْتَني**﴾[1].

وقلت: ﴿**خَلَقْتَني مِن نارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[2].

---

(١) الحجر: ٣٩.

(٢) الأعراف: ١٢.

وقلت: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[1].

فاعترفتَ بأنه ربُّك وخالقك ومالكك، وأنك مخلوق له، مربوب تحت أوامره ونواهيه، إنما شأنك أن تتصرف في نفسك تصرُّف العبد المأمور المنهي، المستعد لأوامر سيده ونواهيه، وهٰذه هي الغاية التي خُلِقْتَ لها، وهي غاية الخلق، وكمال سعادتهم وصلاحهم.

وهٰذا الاعتراف منك بربوبيته وقدرته وعزَّته يتضمن إقرارك بكمال علمه وحكمته وغناه، وأنه في كل ما أمر به عليم حكيم، لم يأمر عبده بحاجة منه إلى أمره به، ولم ينهه بخلاً عليه بما نهاه عنه، بل أمره رحمةً منه به، وإحساناً إليه؛ بما فيه صلاحه في معاشه ومعاده، وما لا صلاح له إلا به، ونهاه عما في ارتكابه فساده في معاشه ومعاده، فكانت نعمته عليه بأمره ونهيه أعظم من نعمته عليه بمأكله ومشربه ولباسه وصحة بدنه بما لا نسبة بينهما؛ كما قال سبحانه في آخر قصتك مع الأبوين[2]:

﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوارِي سَوْءاتِكُمْ ورِيْشاً ولِبَاسُ التَّقْوى ذٰلك خَيْرٌ ذٰلك مِنْ آياتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[3].

فأخبر سبحانه أن لباس التقوى وزينتَها خيرٌ من المال والرياش والجمال الظاهر، فالله سبحانه خلق عباده، وجمَّل ظواهرهم بأحسن تقويم، وجمَّل بواطنهم بهدايته إلى الصراط المستقيم.

---

(١) صٓ: ٨٢ - ٨٣.

(٢) هما آدم وحواء.

(٣) الأعراف: ٢٦.

ولهٰذا كانت صورتُكَ قبل معصية ربك وإيثارِك معاداته على طاعته وموالاته من أحسن الصور، وأنت مع الملائكة الأكرمين، فلما وقع ما وقع؛ جعل قبحَ صورتك وبشاعة منظرك مثلاً يضرب لكل قبيح؛ كما قال تعالى:

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[1].

فهٰذه أول فقرة تعجَّلتها من معصيته.

ولا ريب أنك تعلم أنه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، وأغنى الأغنياء، وأرحم الراحمين، وأنه لم يأمر العباد إلا بما فعلُه خيرٌ لهم وأصلحُ وأنفعُ وأحسنُ تأويلاً وأعظمُ عائدة من تركه؛ كما أنه لم يرزقهم إلا ما تناوُلُه أنفعُ لهم من تركه، فأمرُه لهم بما أمرهم به كرزقِه لهم ما رزقهم إياه، فالسعداء استعملوا أمرَه وشرعَه لحفظ صحة قلوبهم وكمالها وصلاحها؛ بمنزلة استعمالهم رزقَه لحفظ صحة أجسامهم وصلاحها، وتيقَّنوا أنه كما لا بقاء للبدن ولا صحة ولا صلاح إلا بتناول غذائه الذي جُعِلَ له، فكذٰلك لا صلاح للقلب والروح ولا فلاح ولا نعيم إلا بتناول غذائه الذي جُعل له هٰذا، وإن ألقيت إلى طائفة من الناس أنه لا مصلحة للمكلفين فيما أمروا به ونهوا عنه، ولا منفعة لهم فيه ولا خير، ولا فرق في نفس الأمر بين فعل هٰذا وترك هٰذا، ولكن أُمروا ونهوا لمجرَّد الامتحان والاختبار، ولا فرق في نفس الأمر بين ما أُمروا به ونهوا عنه، فلم يؤمروا بحسن، ولم ينهوا عن قبيح، بل ليس في نفس الأمر لا حسن ولا قبيح.

ومن عجيب أمرك وأمرهم أنك أوحيت إليهم هٰذا؟ فردُّوا به عليك.

---

(١) الصافات: ٦٥.

وجعلوه عصمتهم في جواب أسئلتك، فدفعوها كلها، وقالوا: إنما تتوجه هٰذه الأسئلة في حقِّ مَن يفعل لغرض أو لعلة، وأما مَن فعله بريئاً من العلل والأغراض؛ فلا يتوجه عليه سؤال واحد من هٰذه الأسئلة.

فإن كانت هٰذه القاعدة حقّاً؛ فقد اندفعت أسئلتك كلها، وإن كانت باطلاً والحق في خلافها؛ فقد بطلت أسئلتك أيضاً؛ لما تقدم، فقد بطلت أسئلتك على التقديرين يوضحه.

○ الوجه الثالث:

أن نقول لعدو الله: إما أن تسلم حكمة الله في خلقه وأمره، وإما أن تجحدها وتنكرها.

فإن سلمتها، وأنه سبحانه حكيم في خلقك، حكيم في أمرك بالسجود؛ بطلت الأسئلة، وكنت معترفاً بأنك أوردتها على مَن تُميِّز حكمته العقول، ولم تجعل أحداً من خلقه شريكاً له في ما فعل بحكمته؛ فإنه لا يشرِك في حكمه أحداً، كما لم يشركهم في علمه وقدرته وملكه وربوبيته، وحينئذ فتسليمك هٰذه الحكمة التي لا سبيل للمخلوقين لمشاركة الخالق فيها ألبتة قد عادت على أسئلتك الفاسدة بالنقض والإبطال.

وإن رجعت عن الإقرار له ـ سبحانه ـ بالحكمة، وقلت: إنه لا يفعل لحكمة ألبتة، بل لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون؛ فما وجه إيراد هٰذه الأسئلة على مَن لم يفعل بحكمة، ولا يُسأل عما يفعل، فقد أوردت أسئلتك على مَن لا يُسأل عما يفعل، وطعنتَ في حكمة مَن كل أفعاله حكمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ وخيرٌ بمعقولك الفاسد وعقلك الصغير الذي آثرتَ

به داعي الكبر والكفر على داعي العبودية والإيمان.

يوضحه:

○ الوجه الرابع:

وهو أنك قد كشفت للخلائق عن محصول علمك ومعرفتك، وقدر عقلك، الذي صرت به ضحكة لهم وسخرية على ألسنتهم؛ فإنك انتصرت لنفسك ورياستك، ودلَّك عقلُك على أن عزَّك في معصيتك، ورياستك في إبائك من السُّجود.

وكان هٰذا أعظمُ أسبابِ ذُلِّك، وخيبتك، ويأْسك من روح الله، وبعدك من رحمته، وطردك من جنَّته، ومبائتِك بلعنتِه، فأضعت عزك، وأخملت شرفك، ووضعت قدرك؛ من حيث زعمت أنك تحفظه، فكنت كآكل السم الذي فيه تلافه؛ ليحفظ به قوته وصحته، ثم رضيت لنفسك أن صرت خادماً وقَوَّاداً لكل فاسق وفاجر وخبيث.

فمَن هٰذا قدر عقله، ونهاية معرفته وعلمه؛ ألا يستحي من إيراد هٰذه الأسئلة اللائقة به على مَن ملأت حكمته الوجود، وبهرت العقول، حتى صارت للبصائر أظهر من نور الشمس للأبصار.

يوضحه:

○ الوجه الخامس:

إن غايَةَ معقولِكَ وحاصِلَ عقلك هو القياسُ الذي عارضتَ به النَّصَّ، وقدَّمتَه عليه، وقد بان فساده للعقلاء.

إن معارضة الوحي بالعقل ميراثٌ عن الشيخ أبي مرة[1]، فهو أول مَن عارض السمع بالعقل، وقدَّمه عليه؛ فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم؛ عارض أمره بقياس عقليٍّ مركب من مقدِّمتين حمليَّتين[2].

إحداهما: قوله: ﴿**أَنا خَيْرٌ مِنْهُ**﴾[3]. فهٰذه مقدمة صغرى.

والكبرى محذوفة، تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول.

وذكر مستند المقدمة الأولى ـ وهو أيضاً قياس حمليٌّ[4] ـ حذف إحدى مقدمتيه ـ فقال: ﴿**خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[5].

والمقدمة الثانية كأنها معلومة؛ أي: ومَن خُلِق من نار أفضل ممَّن خُلِق مِن طين.

فهما قياسان متداخلان.

وهٰذه يسميها المنطقيون الأقيسة المتداخلة.

فالقياس الأول هٰكذا: أنا خير منه، وخير المخلوقين لا يسجد لمن

---

(١) كنية إبليس لعنه الله.

(٢) القياس الحملي: قياس يتركب من ثلاثة أقوال: من مقدمتين تلزم بالضرورة عنهما نتيجة، ومثاله:

كل المعادن تتمدد بتأثير الحرارة (مقدمة كبرى).

النحاس معدن (مقدمة صغرى).

إذن؛ النحاس يتمدد بتأثير الحرارة (نتيجة).

(٣) صٓ: ٧٦.

(٤) مضى تعريف القياس الحملي.

(٥) صٓ: ٧٦.

هو دونه، وهذا من الشكل الأول.

والقياس الثاني هٰكذا: خلقتني من نار وخلقته من طين، والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين.

فنتيجة هٰذا القياس العقلي: انا خير منه.

ونتيجة الأول: ولا ينبغي لي أن أسجد له.

وأنت إذا تأملت مادة هٰذا القياس وصورته؛ رأيته أقوى من كثير من قياساتهم، التي عارضوا بها الوحي، وقدَّموها عليه، والكل[1] باطل.

وقد اعتذر أتباع الشيخ له بأعذار:

ـ منهـا: أنه لما تعارض عنده العقل والنقل؛ قدم العقل.

ـ ومنها: أن الخطاب بصيغة الضمير في قوله: ﴿**اسْجُدوا**﴾ لا عموم له؛ فإن الضمائر ليست من صيغ العموم.

ـ ومنها: أنه وإن كان اللفظ عامّاً؛ فإنه خصَّه بالقياس المذكور.

ـ ومنهـا: أنـه لم يعتقـد أن الأمـر للوجـوب، بل حمله على الاستحباب؛ لأنه المتيقن، أو على الرجحان؛ دفعاً للاشتراك والمجاز.

ـ ومنها: أنه حمله على التراخي، ولم يحمله على الفور.

ـ ومنها: أنه صان جناب الرب أن يسجد لغيره، ورأى أنه لا يليق به السجود لسواه.

فبالله تأمل هٰذه التأويلات، وقابل بينها وبين كثير من التأويلات التي

---

(١) تقدم التنبيه على ذلك (ص ٣٤).

يذكرها كثير من الناس، والمعارضات التي عارض بها النصوص.

وفي بني آدم من يصوِّب رأي إبليس وقياسه، ويقول: الصواب معه، ولهم في ذٰلك تصنيف.

وكان بشار بن برد[1] الأعمى الشاعر على هٰذا المذهب؛ يقول في قصيدته الرائية:

الأَرْضُ مُظْلِمَــةٌ سَوْدَاءُ مُقْــتِـمَــةٌ
والنَّــارُ مَعْبــودَةٌ مُذْ كَانَتِ النَّــارُ

ولما علم الشيخ[2] أنه قد أصيب في معارضة الوحي بالعقل، وعلم

---

(١) أبو معاذ البصري الضرير، من موالي بني عقيل، ويلقب بالمُرَعَّث، وقد ولد أعمى، كان يفضل النار، وينتصر لإبليس، وكان شعوبياً يتعصب للعجم على العرب، فاتُّهم بالزندقة، فضربه المهدي سبعين سوطاً ليقرَّ، فمات منها، وكان ذٰلك سنة (١٦٧هـ)، وقد جاوز التسعين.

ومن شعره في الانتصار لإبليس:

إبــليس خيرٌ مِن أبــيكُــم آدَمٍ فتَــنَـبَّـهُــوا يا مَعْـشَــرَ الـفُـجَّــارِ
إبْــليس مِن نارٍ وآدَمُ طِينَــةٌ والأرضُ لا تَسْــمــو سُمُــوَّ النَّــارِ

وقد أنكر شارح «ديوانه» هٰذه الأبيات، وزعم أنها من وضع أعدائه، ولم يأت ببرهان لائح أو دليل واضح، وإنما جرى على سنن مَن قال: حسن في عين مَن تود، حيث تنسب إليه كل جميل، وتنفي عنه كل قبيح.

هٰذا؛ وقد أثبتت جل مصادر ترجمته ما نُسب إليه؛ مثل: «وفيات الأعيان» (١ / ٢٧١ ـ ٢٧٤)، و«سير أعلام النبلاء» (٧ / ٢٤ ـ ٢٥)، و«البداية والنهاية» (١٠ / ١٤٩ ـ ١٥٠)، و«لسان الميزان» (٢ / ١٥ ـ ١٦)، و«خزانة الأدب» (٣ / ٢٣٠ ـ ٢٣٢).

(٢) هو إبليس.

أنه لا شيء أبلغ من مناقضة الوحي والشرع وإبطاله من معارضته بالعقول؛ أوحى إلى تلامـذته وإخوانه من الشبهات الخيالية ما يعارَض به الوحي، وأوهم أصحابه وتلاميذه أنها قواطع عقلية، وقال: إن قدَّمتم الوحي عليها؛ فسدت عقولكم.

قال تعالى:

﴿وإنَّ الشَّيـاطينَ لَيُوحُونَ إلى أَولِيائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكونَ﴾(١).

ومن المعلوم أن وحيهم إنما هو شبه عقلية.

وقال تعالى:

﴿وكـذلـكَ جَعَلْنـا لِكُـلِّ نَبيٍّ عَدُوّاً شَياطِينَ الإنْسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُروراً ولو شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ فذَرْهُمْ ومَا يَفْتَرونَ . ولِتُصغِيَ إليهِ أَفْئِدَةُ الَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ ولِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَـرِفونَ . أَفغَيْرَ اللهِ أَبْتَغي حَكَماً وهُو الَّذي أَنْزَلَ إلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً والَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتابَ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَـرِينَ . وتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ صِدْقاً وعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . وإنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبيلِ اللهِ إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وإنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصونَ . إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبيلِهِ وهُوَ أَعْلَمُ بالمُهْتَدينَ﴾(٢).

---

(١) الأنعام: ١٢١.

(٢) الأنعام: ١١٢ ـ ١١٧.

ومعقول الشيخ الذي عارض به الوحي فاسد من وجوه:

أحدهما: أنه قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله؛ كان قياساً باطلاً، ويسمى قياساً إبليسيّاً؛ فإنه يتضمَّن معارضة الحق بالباطل، وتقديمه عليه، ولهٰذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته.

وقد بيَّنَّا فيما تقدَّمَ أنه ما عارض أحدٌ الوحيَ بعقله؛ إلا أفسد عليه عقله، حتى يقول ما يضحك منه العقلاء.

الثاني: أن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾[1] كذب، ومستنَده في ذٰلك باطل؛ فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى؛ فإن الله سبحانه يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهٰذا من كمال قدرته سبحانه، ولهٰذا كان محمد وإبراهيم وموسى وعيسى ونوح والرسل أفضل من الملائكة، ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة[2]، وإن كانت مادتهم نوراً ومادة

---

(١) صٓ: ٧٦.

(٢) وهي مسألة تشعبت فيها الأقوال، وعَظُم فيها الجدال، وتحقيق مناطها: أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية، وذٰلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الغرفات والدرجات العلى، وحيَّاهم الرحمٰن، وخصهم بمزيد فضله، وتجلى لهم، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. والملائكة أفضل باعتبار البداية؛ فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى، منزَّهون عما يقترفه بنو آدم، مستغرقون في عبادة الله لا يفترون، ولا شك أن هٰذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر.

وبهٰذا التفصيل يستبين سر التفضيل، وتتفق الأدلة، ويصالح كل فريق على حقه، والله أعلى وأعلم.

البشر تراباً، فالتفضيل ليس بالمواد والأصول، ولهٰذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيراً وأفضل عند الله ممَّن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم.

وهٰذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثاً في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الإيمان والتقوى، وهي التي أبطلها الله عز وجل بقوله:

﴿يا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ﴾[1].

وقال النبي ﷺ:

«إن الله وضع عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرَها بالآباء، الناس مؤمن تقي، وفاجر شقي»[2].

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥ و٣٥٩٦)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠ / ٢٣٢)، وأحمد (٢ / ٣٦١ و٥٢٣ ـ ٥٢٤)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٤ / ٣٦٤)، وابن وهب في «الجامع» (٤)، وأبو نعيم في «ذكر أخبار أصبهان» (٢ / ٦٠)، وابن منده في «التوحيد» (١١٢)؛ من طرق عن هشام بن سعد عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عزَّ وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ وفاجرٌ شقيٌّ، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، لَيَدَعَنَّ رجالٌ فخرهم بأقوام إنما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنوفها النَّتَن».

قال الترمذي في الموضع الأول: «هٰذا حديث حسن غريب».

وفي الموضع الثاني: «وهٰذا أصح عندنا من الحديث الأول، وسعيد المقبري قد =



وقال ﷺ:

«لا فضل لعربيٍّ على عجمي، ولا عجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض؛ إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب»[1].

= سمع أبا هريرة، ويروي عن أبيه أشياء كثيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه».

وقال ابن منده (١ / ٢٦٢): «هذا حديث مشهور عن هشام، متصل؛ صحيح».

قلت: رجاله ثقات؛ غير هشام بن سعد، فيه كلام يسير من قِبل حفظه؛ كما أشار الحافظ في «التقريب» بقوله: «صدوق، له أوهام»، فالحديث إسناده حسن على شرط مسلم.

غريب الحديث:

(عُبِّيَّةَ الجاهلية)؛ بضم العين المهمة، وكسر الباء الموحدة مع تشديدها، وفتح الياء المثناة مع تشديدها؛ أي: نخوة الجاهلية وفخرها وتكبرها.

(الجُعْلان): جمع جُعل، وهو دويبة تنشأ في القاذورات، وتدحرجها أمامها، وهي المسماة عند العامة بالجعران.

(النتن): العُذْرة.

(١) أخرجه أحمد (٥ / ٤١١): ثنا إسماعيل: ثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق، فقال:

«يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت؟».

قالوا: بلغ رسول الله ﷺ.

قال: «أي يوم هذا...» الحديث.

قلت: إسناده صحيح، وجهالة الصحابي لا تضر.

وقد رواه أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٣ / ١٠٠) من طريق شيبة أبي قلابة القيسي =

فانظر إلى سريان هٰذه النكتة الإبليسية في نفوس أكثر الناس؛ من تفضيلهم بمجرد الأصول والأنساب.

الثالث: أن ظنه أن النار خير من التراب باطل، مستَنَدُه ما فيها من الإضاءة والخفة وما في التراب من الثقل والظلمة، ونسي الشيخ ما في النار من الطيش والخفة وطلب العلو والإفساد بالطبع، حتى لو وقع منها شواظٌ بقدر الحبة في مدينة عظيمة لأفسدها كلها ومَن فيها، بل التراب خير من النار وأفضل من وجوه متعدِّدة:

ـ منها: أن طبعه السكون والرزانة، والنار بخلافه.

ـ ومنها: أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه.

ـ ومنها أنه لا يمكن أحد العيش بدونه ودون ما خُلِق منه ألبتة، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار:

= عن الجريري عن أبي نضرة عن جابر رضي الله عنه؛ قال: خطبنا رسول الله ﷺ وسط أيام التشريق حجة الوداع، فقال: (فذكره).

قال أبو نعيم: «غريب من حديث أبي نضرة عن جابر، لم نكتبه إلا من حديث أبي قلابة عن الجريري عنه».

قلت: أورده الدولابي في «الكنى» (٢ / ٨٤)، ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً، فهو مجهول.

وعزاه المنذري في «الترغيب والترهيب» (٣ / ٦١٣) إلى البيهقي وحده عن جابر، وقال: «في إسناده بعض يجهل».

فلعله يشير إلى أبي قلابة القيسي، والله أعلم.

وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨ / ٨٤) إلى الطبراني في «الأوسط»، والبزار، بنحوه من حديث أبي سعيد، وقال: «ورجال البزار رجال الصحيح».

قالت عائشة: «يمرُّ بنا الشهر والشهران ما نوقِدُ في بيوتِنا ناراً، أو ما نرى ناراً».

قال لها عروة: فما كانت قوتُكُم؟

قالت: «الأسودان: التمر والماء»[1].

ـ ومنها: أن الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوى، وتربيه لك، وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك، وتمحق بركته.

ـ ومنها: أن الأرض مهبط وحي الله، ومسكن رسله وأنبيائه وأوليائه، وكفاتهم[2] أحياء وأمواتاً، والنار مسكن أعدائه ومأواهم.

ـ ومنها: أن في الأرض بيته، الذي جعله إماماً للناس، وقياماً لهم، وجعل حجَّه محطّاً لأوزارهم، ومكفِّراً لسيئاتهم، وجالباً لهم مصالح معايشهم ومعادهم.

ـ ومنها: أن النار طبعها العلو والفساد، وأن الله لا يحب المستكبرين، ولا يحب المفسدين، والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين.

وقد ظهر هٰذا بخلق إبراهيم ومحمد وموسى وعيسى والرسل من المادة الأرضية، وخلق إبليس وجنوده من المادة النارية.

---

(١) أخرجه البخاري (١١ / ٢٨٣ ـ فتح)، ومسلم (١٨ / ١٠٧ ـ نووي).

(٢) الموضع الذي يضم فيه الشيء ويقبض؛ قال تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأرضَ كِفاتاً . أحياءً وأمواتاً﴾ [المرسلات: ٢٥ ـ ٢٦].

نعم؛ وخلق من المادة الأرضية الكفار المشركين، ومن المادة النارية صالحي الجن، ولكن ليس في هٰؤلاء مثل إبليس، وليس في أولٰئك مثل الرسل والأنبياء.

فمعلم الخير من المادة الأرضية، ومعلم الشر من المادة النارية.

ـ ومنها: أن النار لا تقوم بنفسها، بل لا بد لها من محل تقوم به، لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلى المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها، لا تحتاج إلى محلٍّ تقوم به، ولا يفتقر قوامها ونفعها إلى النار.

ـ ومنها: أن التراب يفسد صورة النار، ويبطلها، ويقهرها، وإن علت عليه.

ـ ومنها: أن الرحمة تنزل على الأرض فتقبلها، وتَحْيى بها، وتخرج زينتها وأقواتها، وتشكر ربها، وتنزل على النار فتأباها، وتطفيها، وتمحوها، وتذهب بها، فبينها وبين الرحمة معاداة، وبين الأرض وبين الرحمة موالاة وإخاء.

ـ ومنها: أن النار تُطفأ عند التكبير[1]، فتضمحلُّ عند ذكر كبرياء

---

(١) إشارة إلى حديث أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٥ ـ ٢٩٨)، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٤ / ٤٩٦)؛ من طريق القاسم بن عبدالله بن عمر بن حفص بن عاصم العمري عن عبدالرحمٰن بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا رأيتم الحريق فكبِّروا؛ فإن التكبير يطفئه».

قلت: سنده ضعيف جدّاً؛ لأن القاسم بن عبدالله متروك رماه أحمد بالكذب. =

الرب، ولهٰذا يهرب المخلوق منها عند الأذان[1] حتى لا يسمعه، والأرض تبتهج بذٰلك، وتفرح به، وتشهد به لصاحبه يوم القيامة[2].

ويكفي في فضل المخلوق من الأرض على المخلوق من النار أن

= وأخرج ابن عدي في «الكامل» (٤ / ١٤٦٩) من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (فذكره).

قلت: هٰذه ليست متابعة؛ لأن ابن لهيعة دلس فيه، فقد نقل العقيلي في «الضعفاء» (٢ / ٢٩٦) عن ابن أبي مريم قوله:

«هٰذا الحديث سمعه ابن لهيعة من زياد بن يونس الحضرمي، رجل كان يسمع معنا الحديث عن القاسم بن عبدالله بن عمر، وكان ابن لهيعة يستحسنه، ثم إنه بعد قال: إنه يرويه عن عمرو بن شعيب (!)».

(١) إشارة إلى قول رسول الله ﷺ:

«إذا نودي بالصلاة؛ أدبر الشيطان له ضراط، حتى لا يسمع التأذين، حتى إذا قفى التثويب؛ أقبل يخطر بين المرء ونفسه، ويقول: اذكر كذا، واذكر كذا؛ لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل ما يدري كم صلى».

أخرجه البخاري (٢ / ٨٢ - فتح)، ومسلم (٤ / ٩١ - نووي)، وغيرهما؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرج البخاري (٥ / ٨ - ٩ - شرح الكرماني) عن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن عبدالرحمٰن بن أبي صعصعة الأنصاري أن أبا سعيد قال:

«إني أراك تحب الغنم والبادية، فإذا كنتَ في غنمك أو باديتك فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنٌّ ولا إنسٌ ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

قال أبو سعيد: «سمعتُه من رسول الله ﷺ».

وله شاهد من حديث أبي هريرة.

أخرجه أبو داود (٥١٥)، والنسائي (٢ / ١٢ - ١٣).

الله سبحانه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلَّمه أسماء كل شيء، فهل حصل للمخلوق من النار واحدة من هٰذه؟!

فقد تبيَّن لك حال هٰذه المعارضة العقلية للسمع، وفسادها من هٰذه الوجوه، وأكثر منها، وهي من شيخ القوم ورئيسهم ومعلمهم الأول، فما الظن بمعارضة التلامذة؟!

ونحن نقول قولاً ـ نقدم بين يديه مشيئة الله وحوله، والاعتراف بمنَّته علينا، وفضله لدينا، وأنه محض منَّته وجوده وفضله، فهو المحمود أولاً وآخراً على توفيقنا له، وتعليمنا إياه ـ:

إن كل شبهة من شُبه أرباب المعقولات عارضوا بها الوحي؛ فعندنا ما يبطلها بأكثر من الوجوه التي أبطلنا بها معارضة شيخ القوم، وإن مدَّ الله في الأجل؛ أفردنا في ذٰلك كتاباً كبيراً[1]، ولو نعلم أن في الأرض من يقول ذٰلك، ويقوم به، تبلغ إليه أكباد الإبل؛ لاقتدينا بالمسير إليه بموسى في

---

(١) وقد أفرد شيخ الإسلام هٰذا الباب في كتاب سماه: «درء تعارض العقل والنقل»، وهو مطبوع متداول بتحقيق الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله.

وقد وصفه ابن قيم الجوزية في «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص ١٩٥):

«ومن أراد معرفة هٰذا؛ فليقرأ كتاب شيخنا، وهو «بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح»؛ فإنه كتاب لم يطرق العالم له نظير في بابه؛ فإنه هدم فيه قواعد أهل الباطل من أسها، فخرت عليهم سقوفه من فوقهم، وشيد فيه بناء قواعد أهل السنة والحديث، وأحكمها، ورفع أعلامها، وقررها بمجامع الطرق التي يقرر بها الحق؛ من العقل، والنقل، والفطرة، فجاء كتاباً لا يستغني من نصح نفسه من أهل العلم عنه، فجزاه الله عن أهل العلم والإيمان أفضل جزاء، وجزى العلم والإيمان عنه كذٰلك».

سفره إلى الخضر، وبجابر بن عبد الله في سفره إلى عبد الله بن أنيس؛ لسماع حديث واحد، ولكن: أزهدُ الناس في العالِم قَوْمُه(1).

---

(1) أصله موقوف على عروة بن الزبير بإسناد صحيح، أخرجه أبو خيثمة في «العلم» (91): ثنا عبدالله بن نمير عن هشام بن عروة عن أبيه؛ قال: «كان يقال: أزهد الناس في عالم أهله».

قال شيخنا حفظه الله: «هٰذا هو أصل هٰذا الحديث، موقوف غير مرفوع، وذكر بعضهم عن كعب الأحبار أن هٰذا في التوراة».

قلت: ما ورد عن كعب أخرجه البيهقي في «المدخل» (701): أخبرنا أبو زكريا بن أبي إسحاق: أنبأ أبو الحسن الطرائفي: ثنا عثمان بن سعيد: ثنا زكريا بن نافع الرملي: ثنا السري بن يحيى عن عبيدالله بن العيزار عن كعب؛ قال: «إني لأجد في كتاب الله المنزل أن أزهد الناس في العالم جيرانه».

وأخرجه أيضاً (702) من حديث عكرمة.

وقال (703): «وروي ذٰلك أيضاً عن الحسن البصري، وروي من وجه آخر مرفوعاً».

قلت: المرفوع أخرجه: ابن الجوزي في «الموضوعات» (1 / 237 - 238)، وابن عدي في «الكامل» (6 / 2866)؛ من حديث جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من أزهد الناس في العالم؟». قيل: يا رسول الله! أهل بيته. قال: «لا؛ جيرانه».

ثم قال ابن الجوزي: «هٰذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وإنما يروى عن بعض العلماء، والمتهم به المنذر؛ قال الفلاس: كان كذاباً، وقال الدارقطني: متروك».

قال السيوطي في «اللآلىء المصنوعة» (1 / 212): «له طريق أخرى رواه أبو نعيم من حديث أبي الدرداء، وقال الديلمي: وفي الباب عن أسامة بن زيد وأبي هريرة».

وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (1 / 264): «حديث أبي الدرداء في سنده عبدالواحد الدمشقي؛ قال الذهبي: لا يدرى من ذا، ولا حدث عنه غير محمد بن سوقة، وبقية رجاله محتج بهم، والله أعلم».

وقد قام قبلنا بهٰذا الأمر مَن برز[1] به على أهل الأرض في عصره، وفي الأعصار قبله، فأدرك من قبله وحيداً، وسبق مَن بعده سبقاً بعيداً، واستنقذ النصوص من أيدي الملحدين، ونفى عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وجعل ملوك أرباب المعقولات المعارضين لها أسرى في أيدي المسلمين، وأخذ عليهم بمجامع الطرق حتى لم يبق لهم مددٌ ولا كمينٌ[2]، فجرى عليه من تلامذة هٰذا الشيخ[3] وأتباعه من الجاهلين والمعاندين والمعطِّلين ما جرى على مَن قام مقامه على مر السنين.

مَضَـوْا ومَضَى ثُمَّ الْتَقَوْا عندَ رَبِّهم
فأَخَّـرَهُمْ للحُكْمِ يَوْمَ التَّخاصُمِ

فإذا كان هٰذا شأنُ أقوى أسئلتك التي أوردتها على ربِّك، وسائر أسئلتك مبنية عليه ومردودة إليه؛ فما الظن بفروعٍ هٰذا أصلُها.

فمَن نادى على مقدار عقله ومحصول معرفته على رؤوس الملإ من الملائكة بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[4]، واستجاز

---

(١) هو شيخه، شيخ الإسلام، أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، المتوفى سنة (٧٢٨هـ)، رحمه الله تعالى.

(٢) في كتابه الموسوم بـ «درء تعارض العقل والنقل»، وقد سبقت إشارة ابن قيم الجوزية إلى فوائده.

(٣) هم تلامذة إبليس وأتباعه بدلالة السياق، ومراده ما حدث لشيخ الإسلام في السجن والنفي على أيدي المبتدعة مما لا يخفى على طلاب العلم السّني.

(٤) الأعراف: ١٢.

معارضة الأمر المتضمن لغاية الحكمة والمصلحة بهٰذا الرأي الفاسد والسَّفَهِ البارد؛ كيف يتوجه له سؤالٌ على الحكيمِ العليم؟!

○ الوجه السادس :

إن هٰذه الأسئلة يرجع حاصلها كلها إلى القدح والطعن في علم الرب سبحانه، أو حكمته، أو قدرته، أو اثنين منها، أو كلها، إذ حاصلها أنه سبحانه إما أن يكون عالماً بما يحصل مني وما يكون من أمري، أو لا يكون عالماً، فإن لم يكن عالماً؛ لزم القدح في علمه، وإن كان عالماً؛ فإما أن يكون قادراً على منعي من هٰذا الفساد والضرر الواقع ببني آدم مني، أو لا يكون قادراً، فإن لم يكن قادراً؛ لزم القدح في قدرته، وإن كان قادراً، ولم يمنعني، بل مكنني وأبقاني وسلطني؛ لزم القدح في حكمته.

فهٰذا غاية ما عند تلامذة عدو الله وأصحابه، وهو الذي أوحاه إليهم، وألقاه على ألسنتهم، وجعله دائراً بينهم.

وحينئذ فيقال له: هٰذا إنكارٌ منك لما عُلم بالضرورة التي هي فوق كل ضرورة من وجود رب العالمين، وإلٰه مَن في السماء والأرض الذي هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وهو أحكم الحاكمين، فإنكار علمه وحكمته وقدرته جحودٌ وإنكارٌ له، ونفيٌ أن يكون لك أو للعالمين ربٌّ عليمٌ مدبرٌ حكيمٌ؛ فإن الجاهل العاجز السفيه لا يكون ربّاً ولا إلٰهاً، فلا تتم لك هٰذه الأسئلة إلا بقول أخيك وشقيقك فرعون:

﴿وما رَبُّ العَالَمينَ﴾[1].

---

(١) الشعراء: ٢٣.

وقوله: ﴿يَا أَيُّها المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي﴾[1].

فإن عدو الله علم أنه إن أقرَّ بوجود فاطر السماوات والأرض، وبصفاته، وعلوه فوق العالم، وتكليمه لموسى؛ أوجب عليه هٰذا: الإقرار، والانقياد، والعبودية، والإيمان بموسى، فلم يجد بدّاً من إنكار الرب وعدم الإقرار به.

وهٰكذا هٰذه الأسئلة لا تتوجَّه إلا مع إنكاره سبحانه وجحوده، وإلا؛ فمع الإقرار بأنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه أحكم الحاكمين؛ فلا تتوجَّه ألبتة وهٰذه حقيقة الرب.

وحينئذ نقول في:

○ الوجه السابع:

إن مثل هٰذا النمط من الاعتراضات والأسئلة فاسدٌ عند جميع أهل الأرض؛ فإنه يتضمَّن اعتراض الجاهل على أحذق الناس صناعة؛ قد أحكم آلاتها وأسبابها، وقدرها على أكمل الوجوه، وأحسنها، وأوفقها لما يقصد منها، فجاء رجل جاهلٌ لا مناسبة بينه وبين ذٰلك الحاذق بوجه ما، فأخذ يعترض عليه في أجزاء تلك الصناعة وآلاتها وأشكالها ومقاديرها، ويقول: هلَّا كان هٰذا أكبر مما هو، أو أصغر، أو على شكل آخر، أو كان كذا في موضع كذا، أو عمل هٰذا في وقت كذا، ونحو هٰذا مما يسخر منه العقلاء، ويعدُّون صاحبه في زمرة السفهاء ـ مع أنه يمكن المعترض مشاركة ذٰلك الأستاذ الحاذق في صناعته ومساواته فيها، وتقدمه عليه

---

(1) القصص: ٣٨.

فيها ـ، فإذا كان اعتراضه عليه مدفوعاً عند كل عاقل، فما الظن بالاعتراض على مَن لا شريك له في حكمته، ولا شبيه له فيها، والتفاوت الذي بينه وبين المعترض في حكمته كالتفاوت الذي بينه وبينه في العلم والقدرة والغنى وسائر الصفات؟!

أفلا يستحي مَن يرى الاعتراض على مخلوق مثله قد فاقه في صناعة وعلم قبيحاً لا يجد عليه إلا تعريضه نفسه للذم ومبادلته عليها بالجهل من إيراد مثل هٰذه الأسئلة على الحكيم العليم؟!

○ **الوجه الثامن:**

أن يقال لعدو الله: إيرادك هٰذه الأسئلة: إما أن تكون على وجه الطعن في الرب تعالى، وأنه فَعَلَ ما لا ينبغي له فعله، أو على وجه الاسترشاد وطلب الهداية.

فإن كان على وجه الطعن والقدح؛ فكيف تجامع اعترافك بربوبيته وملكه وخلقه، وإقرارك بعزته وحكمته، ثم تقدح فيه؟!

وإن كان على وجه الاسترشاد وطلب الحكمة؛ فذٰلك فرعٌ عن التسليم لأمره، والإذعان لعبوديته، والانقياد لحكمته، فلا يجتمع مع تصريحك بالعداوة والكفر والاستكبار عن طاعته، فإن معصيتك له ـ وقد أمرك منه إليك بلا واسطة ـ أعظم من استكبار من استكبر عن طاعته التي أمر بها على ألسنة رسله، فإذا آثرت الكفر والاستكبار والعداوة؛ فكيف سألت مسائل المسترشد المهتدي؟!

فالسؤال نوعان: إما سؤال جاهل بالحكمة في طلب معرفتها، وإما

سؤال قادح في الحكمة بما يبطلها وينقضها.

وحينئذ فنقول في:

○ الوجه التاسع:

لا تتوجّه هٰذه الأسئلة على واحدة بين الطريقتين:

أما على الطريقة الأولى؛ فلأن الاستعداد والقبول لمعرفة تفاصيل الحكمة يكون شرطاً في قبول الأسئلة والجواب عنها، والقوى البشرية ليست مستعدة للعلم بتفاصيل حكمة الله في خلقه وأمره، وحينئذ فيكون بيان تفاصيل الحكم عبثاً ضائعاً، وهو مناف للحكمة.

وأما على الطريقة الثانية؛ فلأن أسئلته تتضمن قدح العبد في الرب، والمخلوق في الخالق، والجاهل في العالم، والسفيه في الحكيم، فهي من أبطل الأسئلة، ولا يحتاج في بيان بطلانها إلى أكثر من ذٰلك.

يوضحه:

○ الوجه العاشر:

إن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع.

ولهٰذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبيٍّ صدقت نبيها وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به، ونهاها عنه، وبلغها عن ربها، ولو بلغت ذٰلك؛ لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت، وسلمت، وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في

انقيادها وإيمانها واستسلامها على معرفته، ولا فعلت طلبه من شأنها، وكان رسوله أعظم في صدورها من سؤالها عن ذٰلك؛ كما في الإنجيل:

«يا بني إسرائيل! لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولٰكن قولوا: بم أمر ربنا؟».

ولهٰذا كانت هٰذه الأمة التي هي أكمل الأمم عقولاً ومعارف وعلوماً لا تسأل نبيها لِمَ أمر الله بذٰلك؟ ولم نهى عن كذا؟ ولم قدَّر كذا؟ ولم فعل كذا؟ لعلمهم أن ذٰلك مضادٌّ للإيمان والاستسلام، وأن قَدَم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم، وذٰلك يوجب تعظيم الرب تعالى وأمره ونهيه، فلا يتم الإيمان إلا بتعظيمه، ولا يتم تعظيمه إلا بتعظيم أمره ونهيه، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه، وتعظيم الأمر دليلٌ على تعظيم الآمر، وأول مراتب تعظيم الأمر: التصديقُ به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، ثم فعلُه؛ لكونه مأموراً به، بحيث لا يتوقف الإنسان على معرفة حكمته، فإن ظهرت له؛ فعله، وإلا عطله، فهٰذا من عدم عظمته في صدره، بل يسلِّم لأمر الله وحكمته؛ ممتثلاً ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر، فإن ورد الشرع بذكر حكمة الأمر، أوفقهها العقل؛ كانت زيادة البصيرة والداعية في الامتثال، وإن لم تظهر له حكمته؛ لم يوهن ذٰلك انقياده، ولم يقدح في امتثاله، فالمعظِّم لأمر الله يُجري الأوامر والنواهي على ما جاءت، لا يعلِّلها بعلل توهنها وتخدش في وجه حسنها؛ فضلاً عن أن يعارِضَها بعلل تقتضي خلافَها، فهٰذا حال ورثة إبليس، والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء.

○ **الوجه الحادي عشر:**

إن المعترضين على الرب سبحانه قسمان: قسمٌ اعترضوا عليه في أمره ونهيه، وقسمٌ اعترضوا عليه في قضائه وقدره، وربما اجتمع النوعان في حق المعترض، وقد ينفرد أحدهما.

وإبليس ممن جمع النوعين:

فاعترض أولاً عليه في أمره له بالسجود لآدم، وزعم أنه مخالفٌ للحكمة، وأن الحكمة إنما تقتضي خضوعَ المفضول للفاضل، لا ضدَّ ذٰلك، وزعم أنه أفضل وخيرٌ من آدم.

ثم اعترض بعد ذٰلك على القضاء والقدر بهٰذه الأسولة.

فجمع بين الاعتراض على أمره وقدره، وبثَّ هٰذين النوعين في أصحابه وتلامذته، وأخرجها لهم في كل قالَب وصورة يقبلونها فيها، وآخر ذٰلك أوحى إليهم أن يعترضوا على خبره عن نفسه وخبر رسله عنه بالعقل، فعارض عدو الله أمرَه بأنه خلاف الحكمة، وقدرَه بأنه خلاف العدل، وخَبرَه بأنه خلاف العقل، وسرت هٰذه المعارضات الثلاث في أتباعه، فهم خلفاؤه ونوَّابه، فهم على قدر أنصابهم منها.

ومعلوم أن هٰذه الأنواع الثلاثة مضادة له، ومجاهرة بالعداوة، ومن التلبيس إخراج المعترض لها في صورة العلم والحب والمعرفة، بألفاظ مزخرفة، تغرُّ السامع، وتصغي إليها أفئدة أشباه الأنعام، وتنفعل عنها قلوبهم بالرضى بها، وألسنتهم بالتكلم بها، وجوارحهم بالعمل بمقتضاها.

○ الوجه الثاني عشر:

إن أعداءه المشركين اعترضوا على أمره وشرعه بقضائه وقدره، فجعلهم سبحانه بذٰلك كاذبين جاهلين مشركين، وهٰذه الأسولة الإبليسية تتضمن الاعتراض على قضائه وقدره بحكمته، وأن الحكمة تعارض ما قضاه وقدره؛ كما أن اعتراض المشركين يتضمن أن القضاء والقدر يعارض ما شرعه وأمر به.

وهٰذه المعارضات كلها من مشكاة واحدة، فإذا كان الاعتراض على دينه وشرعه بقضائه وقدره باطلاً؛ فكذٰلك الاعتراض على قضائه وقدره بحكمته.

يوضحه:

○ الوجه الثالث عشر:

إن الأمر والقدر تفصيلٌ للحكمة ومظهرها؛ فإنها خفية؛ فلا بد لظهورها من شرعٍ يأمر به، وقدرٍ يقضيه ويكونه، فتظهر حكمته سبحانه في هٰذا وهٰذا، فكيف يكون تفصيل الشيء وما يظهره مناقضاً له منافياً؟! بل يمتنع أن يكون إلا مصدِّقاً موافقاً؛ فإن التفصيل متى ناقض الأصل وضادَّه؛ كان دليلاً على بطلانه.

يوضحه:

○ الوجه الرابع عشر:

وهو أن الرب سبحانه وتعالى له الأسماء الحسنى، وأسماؤه متضمنة

لصفـات كماله، وأفعاله ناشئة عن صفاته؛ فإنه سبحانه لم يستفد كمالاً بأفعاله، بل له الكمال التام المطلق، وفعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعـالـه؛ فإنـه فَعَـلَ فكَمُـلَ بفعله، وأسمـاؤه الحسنى تقتضي آثارها وتستلزمها استلزام المقتضي الموجب لموجَبه ومقتضاه، فلا بد من ظهور آثارها في الوجود؛ فإن من أسمائه الخلاق المقتضي لوجود الخلق، ومن أسمـائـه الـرزاق المقتضي لوجـود الـرزق والمـرزوق، وكـذٰلك الغفار، والتـواب، والحكيم، والعفـو، وكذٰلك الرحمٰن الرحيم، وكذٰلك الحكم العدل. . . إلى سائر الأسماء، ومنها الحكيم المستلزم لظهور حكمته في الوجود، والوجود متضمن لخلقه وأمره:

﴿**أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ**﴾(١).

فخلقه وأمره صدرا عن حكمته وعلمه، وحكمته وعلمه اقتضيا ظهور خلقه وأمره، فمصدر الخلق والأمر عن هٰذين المتضمنين لهاتين الصفتين، ولهٰذا يقرن سبحانه بينهما عند ذكر إنزال كتابه، وعند ذكر مُلكه وربوبيته، إذ هما مصدر الخلق والأمر.

ولما كان سبحانه كاملاً في جميع أوصافه، ومن أجلها كلمته كانت عامة التعلُّق بكل مقدور، كما أن علمه عام التعلق بكل معلوم، ومشيئته عامة التعلق بكل موجود، وسمعه وبصره عام التعلق بكل مسموع ومرئي، فهٰذا من لوازم صفاته؛ فلا بد أن تكون حكمته عامة التعلق بكل ما خلقه وقدره وأمر به ونهى عنه، وهٰذا أمر ذاتيٌّ للصفة يمتنع تخلُّفه وانفكاكه عنها،

---

(١) الأعراف: ٥٤.

كما يمتنع تخلف الصفة نفسها وانفكاكها عنه.

وهٰذا وحده برهان كافٍ شافٍ في إبطال تلك الأسولة كلها، وأنه يكفي في إبطالها إثبات عموم تعلق صفاته، وذٰلك يستلزم إثبات الصفات، وهي تستلزم إثبات الذات، فإثبات ذات الرب تعالى كاف في بطلان الأسولة الإبليسية.

نعم؛ الجهميُّ المعطلُ وأصحابه يعجزون عن الجواب عنها على هٰذه الطريق، وإن أجابوا عنها على غيرها؛ لم يشفوا عليلاً، ولم يرووا غليلاً، إذ هي أجوبة مبنية على أصول باطلة، والمبنية على الباطل لا تكون صحيحة من كل وجه.

وقد قدمنا مجامع طرق الناس في الأجوبة، وبان أن الأصول الفاسدة خذلتهم عن الجواب الصحيح الشافي.

○ الوجه الخامس عشر:

إن الله سبحانه وتعالى فطر عباده ـ حتى الحيوان البهيم ـ على استحسان وضع الشيء في موضعه، والإتيان به في وقته، وحصوله على الوجه المطلوب منه، وعلى استقباح ضد ذٰلك وخلافه، وأن الأول دالٌّ على كمال فاعله وعلمه وقدرته وخبرته، وضده دالٌّ على نقصه وعلى نقص علمه وقدرته وخبرته، وهٰذه فطرة لا يمكنهم الخروج عن موجبها.

ومعلوم أن الذي فطرهم على ذٰلك وجعله فيهم أولى به منهم، فهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعها التي لا يليق بها سواها، ويخصها من الصفات والأشكال والهيئات والمقادير بما هو أعلم بها من غيره، ويبرزها

في أوقاتها وأزمنتها المناسبة لها التي لا يليق بها سواها، ومن له نظر صحيح، وفكر مستقيم، وأعطى التأمُّل حقه؛ شهد بذلك فيما رآه وعلمه، واستدلَّ بما شاهده على ما خفي عنه؛ فإن الكل صنع الحكيم العليم.

ويكفي في هٰذا ما يعلمه من حكمة خلق الحيوان، وأعضائه، وصفاته، وهيئاته، ومنافعه، واشتماله على الحكمة المطلوبة أتم اشتمال.

وقد ندب سبحانه عباده إلى ذٰلك:

فقال: ﴿**وفي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾[1].

وقال: ﴿**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلى الإِبلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾[2] إلى آخرها.

وكذٰلك جميع ما يشاهَد من مخلوقاته؛ عاليها وسافلها، وما بين ذٰلك، إذا تأمل صحيح التأمل والنظر؛ وجدها مؤسسة على غاية الحكمة، مغشاة[3] بالحكمة، فقرأ سطور الحكمة على صفحاتها، وينادي عليها: هٰذا صنع الله العليم الحكيم، وتقدير العزيز العليم، فإن وجدت العقول أوفق من هٰذا؛ فلتقترحه، أو رأت أحسن منه؛ فلتبده ولتوضحه، ذٰلك صنع ﴿**الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى في خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفاوُتٍ فارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِليكَ البَصَرُ خَاسِئاً وهُوَ حَسِيرٌ**﴾[4].

---

(١) الذاريات: ٢١.

(٢) الغاشية: ١٧.

(٣) مغطاة.

(٤) الملك: ٣ - ٤.

ومن نظر في هٰذا العالم، وتأمَّل أمره حقَّ التأمل؛ علم قطعاً أن خالقه أتقنه وأحكمه غاية الإتقان والإحكام؛ فإنه إذا تأمَّله؛ وجده كالبيت المبني المعدّ فيه جميع عتاده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والمنافع مخزونة كالذخائر، كل شيء منها لأمر يصلح له، والإنسان كالمالك المخوَّل فيه، وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصرفة في مصالحه، فمنها ما هو للدَّرِّ والنسل والغذاء فقط، ومنها ما هو للركوب والحمولة فقط، ومنها ما هو للجمال والزينة، ومنها ما يجمع ذٰلك كله؛ كالإبل، وجعل أجوافها خزائن لما هو شراب وغذاء ودواء وشفاء، ففيها عبرة للناظرين، وآيات للمتوسمين.

وفي الطير واختلاف أنواعها، وأشكالها، وألوانها، ومقاديرها، ومنافعها، وأصواتها، صافات وقابضات، وغاديات ورائحات، ومقيمات وظاعنات: أعظم عبرة، وأبين دلالة على حكمة الخلاق العليم.

وكل ما أوجده الناس وأَوْلَوْه بالاً بالأفكار الطويلة والتجارب المتعددة من أصناف الآلات والمصانع وغيرها، إذا فكَّر فيها المتفكر؛ وجدها مشتقة من الخِلْقَةِ، مستنبطة من الصنع الإلٰهي.

مثال ذٰلك القبان[1]، مستنبطة من خِلْقَةِ البعير، كأنهم لما رأوه ينهض بحمله وينوء به، يمد عنقه ويوازن حمله برأسه؛ استنبطوا القبان من ذٰلك، وجعلوا طول حديدته في مقابلة طول العنق، ورمانة القبان في مقابلة رأس البعير، فتم لهم ما استنبطوه.

---

(١) الميزان الذي يوزن به.

وكذٰلك استنبطوا بناء الأقباء[1] من ظهره، فإنهم وجدوه يحمل ما لا يحمله غيره، فتأملوا ظهره، فإذا هو كالقبو، فعلموا أن القبو يحمل ما لا يحمله السطح.

وكذٰلك ما استنبطه الحذاق لمن كلَّ بصره أن يديم النظر إلى إجانة[2] مملوءة خضر ماء استنباطاً من حكمة الخلاق العليم في لون السماء؛ فإن لونها أشد الألوان موافقة للبصر وتقويته، فجعل أديمها بهٰذا اللون لتمسك الأبصار ولا تنكأ[3] فيها بطول مباشرتها لها، ومن هٰذا استنبط الأطباء لمن أصابه سوء في بصره إدمان النظر إلى الخضرة.

وإذا فكرت في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار:

ولولا طلوعها؛ لبطل أمر هٰذا العالم، فكم في طلوعها من الحكم والمصالح؟ وكيف كان حال الحيوان لو أُمسكت عنهم وجعل الليل عليهم سرمداً والدنيا مظلمة عليهم؟! فبأي نور كانوا يتصرفون وينقلبون؟! وكيف كانت تنضج ثمارهم، وتكمل أقواتهم، وتعتدل صورهم وأبدانهم؟! فالحكم في طلوعها أعظم من أن تخفى أو تحصى.

ولكن تأمل الحكمة في غروبها، فلولا غروبها لم يكن للحيوان هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء؛ لراحة أبدانهم، وإجمام[4] حواسهم، وأيضاً؛ لو دامت على الأرض؛ لاشتدَّ حموها بدوام طلوعها

---

(١) جمع قبو، وهو الطاق المعقود بعضه إلى بعض.

(٢) إناء من أدَم تغسل فيه الثياب.

(٣) أي: لا تتألم.

(٤) إراحتها.

عليهـا، فأحرق كل ما عليها من حيوان ونبات، فاقتضت حكمة الخلاق العليم والعزيز الحكيم أن جعلها تطلع عليهم في وقت وتغيب في وقت، بمنزلة سراج يُرفع لأهل الدار مليّاً ليقضوا مآربهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليقـروا ويهـدوا، وصـار ضياء النهـار وحرارته، وظلام الليل وبرده ـ على تضادهما، وما فيهما ـ متظاهِرَين متعاوِنَين على ما فيه صلاح العالم وقوامه ومنافع أهله.

ثم اقتضت حكمته أن جعل للشمس ارتفاعاً وانحطاطاً؛ لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما فيها من قيام الحيوان والنبات.

ففي زمن الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيها مواد الثمار، ويغلظ الهواء بسبب البرد، فتصير مادة للسحاب، فيرسل العزيز الحكيم الريح المثيرة، فيثيره فزعاً، ثم يرسل عليه الريح المؤلفة، فتؤلف بينه حتى يصير طبقاً واحداً، ثم يرسل عليه الريح اللاقحة التي فيها مادة الماء، فيلقحه كما يلقح الذكر الأنثى، فيحمل الماء من وقته، فإذا كان بروز الحمـل وانفصـالـه؛ أرسـل عليه الريح الذارية، فتذروه وتفرقه في الهواء؛ لئلا يقع صبة واحدة، فيهلك ما أصابه، ويقل الانتفاع به، فإذا سقى ما أمـر بسقيه، وفرغت حاجتهم منها؛ أرسل عليه الرياح السائقة، فتسوقه وتزيحه إلى قوم آخرين وأرض أخرى محتاجة إليه.

فإذا جاء الـربيع؛ تحـركت الـطبـائع، وظهرت المواد الكامنة في الشتاء، فخرج النبات، وأخذت الأرض زخرفها، وازَّيَّنَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج.

فإذا جاء الـصـيف؛ سخـن الهــواء، فنضجت الثمــار، ويبست

الحبوب، فصلحت للحفظ والتخزين، وتحللت فضلات الأبدان.

فإذا جاء الخريف؛ كسر ذلك السموم والحرور وصفاء الهواء واعتدل، وأخذت الأرض والشجر في الراحة والجموم والاستعداد للحمل الآخر.

واقتضت حكمته سبحانه أن أنزل الشمس والقمر في البروج، وقدَّر لهما المنازل؛ ليعلم العباد عدد السنين والحساب من الشهور والأعوام، قسم بذلك مصالحهم، ويعلم آجال معاملاتهم، ومواقيت حجهم وعباداتهم، ومدد أعمارهم، وغير ذلك من مصالح حسابهم.

فالزمان مقدار الحركة.

ألا ترى أن السنة الشمسية مقدار مسير الشمس من الحمل إلى الحمل؟

واليوم مقدار مسيرها من الشرق إلى الغرب.

وبحركة الشمس والقمر كان الزمان من حين خلقا إلى أن يجمع الله بينهما، ويعزلهما عن سلطانهما، ويرى عابديهما أنهم عبدوا الباطل من دونه، وأن سلطان معبودهم قد بطل واضمحل، وأن سلطان الحق والملك الحق لله الواحد القهار.

قالَ تعالى: **﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ والحِسابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلكَ إلَّا بالحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمونَ﴾**[1].

---

(١) يونس: ٥.

وقال تعالى: ﴿وجَعَلنا الَّيْلَ والنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ والحِسابَ وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناهُ تَفْصيلاً﴾[1].

ففي القمر وتقدير منازله آيات وحكم لا تخفى على الناظرين.

واقتضت حكمته سبحانه في تدبيره أن فاوت بين مقادير الليل والنهار، فلم يجعلهما دائماً على حد سواء، ولا أطول مما هما عليه، ولا أقصر، بل جاء استواؤهما، وأخذ أحدهما من الآخر على وفق الحكمة، حتى إن المكان الذي يقصر أحدهما فيه جدّاً لا يكون فيه حيوان ونبات كالمكان الذي لا تطلع عليه الشمس ولا تغرب عنه.

فلو كان النهار مقدار مئة ساعة أو أكثر، أو كان الليل كذٰلك؛ لتعطَّلت المصالح التي نظمها الله بهٰذا المقدار من الليل والنهار.

ثم تأمل الحكمة في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل؛ فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء لم تقتض المصلحة أن يكون الليل ظلمة واحدة داجية[2] لا ضياء فيها، فلا يمكن فيه شيء من العمل، وربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في النهار، ولإفراط الحرِّ فيه، فاحتاجوا إلى العمل في الليل في نور القمر؛ من حرث الأرض، وقطع الزرع، وغير ذٰلك، فجعل ضوء القمر في الليل معونة للناس على هٰذه الأعمال.

---

(١) الإسراء: ١٢.

(٢) أي: يكون ظلمة واحدة ساكنة.

وجعل في الكواكب جزءاً يسيراً من النور؛ لتسد مسدَّ القمر إذا لم يكن، وجعلت زينة السماء، ومعالم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ودلالات واضحات على الخلاق العليم، وغير ذٰلك من الحكم التي بها انتظام هٰذا العالم.

وجعلت الشمس على حالة واحدة، لا تقبل الزيادة والنقصان؛ لئلا تتعطل الحكمة المقصودة منها، وجعل القمر على حالة تقبل الزيادة والنقصان؛ لئلا تتعطل الحكمة المقصودة من جعله كذٰلك، وكان في نوره من التبريد والتصليب ما يقابل ما في ضوء الشمس من التسخين والتحليل، فتنتظم المصلحة، وتتم الحكمة من هٰذا التسخين والتبريد.

وتأمل اللطف والحكمة الإلٰهية في جعل الكواكب السيارة ومنازلها تظهر في بعض السنين وتحتجب في بعضها؛ لأنها لو ظهرت دائماً أو احتجبت دائماً؛ لذابت الحكمة المطلوبة منها، وكما اقتضت الحكمة أن يظهر بعضها ويحتجب بعضها، فلا تظهر كلها دفعة واحدة، ولا تحتجب دفعة واحدة، بل ينوب ظاهرها عن خفيها في الدلالة.

وجعل بعضها ظاهراً لا يحتجب أصلاً؛ بمنزلة الأعلام المنصوبة التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر، فهم ينظرون إليها متى أرادوا، ويهتدون بها حيث شاؤوا، فجاء الأمران على وفق الحكمة.

ثم تأمل حال النجوم، واختلاف مسيرها، ففرقة منها لا تريم[1]

---

(١) أي: لا تتجاوز أماكنها.

مراكـزهـا من الفلك، ولا تسير إلا مجتمعة كالجيش الواحد، وفرقة منها مطلقة تنتقل في البروج، وتفترق في مسيرها، فكل واحد منها يسير سيرين مختلفين: أحدهما عام مع الفلك نحو الغرب، والآخر خاصٌّ لنفسه نحو المشـرق، فله حركتـان مختلفتـان على وفق الحكمة، وذٰلك من أعظم الدلالة على الفاعل المختار العليم الحكيم، وعلى كمال علمه وقدرته وحكمته.

وتأمل كيف صار هٰذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه، يدور على هٰذا العلم هٰذا الدوران العظيم السريع المستمر؛ بتقدير محكم لا يزيد ولا ينقص ولا يختل عن نظامه، بل هو تقدير العزيز العليم؛ كما أشار تعالى إلى أن ذٰلك التقدير صادر عن كمال عزته وعلمه:

فقال تعالى:

﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلك تَقْديرُ العَزيزِ العَليمِ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿قُـلْ أَئِنَّكُمْ تَكْفُـرُونَ بالَّـذي خَلَقَ الأرْضَ في يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ في يَوْمَيْنِ وأَوْحَى في كُلِّ سَماءٍ أَمْرَهَا وزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وحِفْظاً ذٰلكَ تَقْدِيرُ العَزيزِ العَليمِ﴾[2].

وقالَ تعالى:

﴿فالِقُ الإِصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً ذٰلك

(١) يٰس: ٣٨.

(٢) فصلت: ٩ ـ ١٢.

تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾[1].

فذكر سبحانه أن هٰذا التقدير لمسير الشمس والقمر، والليل والنهار، وحركات النجوم في مطالعها ومغاربها؛ تقدير ناشىء عن عزته وعلمه، وذٰلك متضمِّنٌ وقوعه على وجه الحكمة الغائية، ولتسخير الشمس والقمر والكواكب وتذليلها لعزته، وجار على وفقْ حكمته، فجاءت على وفق ما قدرها له، فهل يخفى على ذي لب أن ذٰلك تقدير مقدرٍ قادرٍ عزيزٍ حكيمٍ[2]؟!

وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وتأمل الحكمة في تعاقب الحرِّ والبرد على هٰذا العالم، وتعاورهما[3] عليه في الزيادة والنقصان والاعتدال، وما فيهما من المصالح والحكم للأبدان والشجر والحيوان والنبات.

ولولا تعاقبهما؛ لفسدت الأبدان والأشجار وانتكست.

ثم تأمَّل دخول أحدهما على الآخر بهٰذا التدريج والترسل؛ فإنك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذٰلك، حتى ينتهي كل واحد منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو دخل أحدها على الآخر فجأة؛ لأضرَّ ذٰلك بالأبدان وأسقمها؛ كما لو خرج الرجل من مكان شديد الحرِّ إلى

---

(١) الأنعام: ٩٦.

(٢) وقد زاد المصنف رحمه الله هٰذه المعاني بسطة في كتابه الفذ «مفتاح دار السعادة» (١ / ١٨٧ ـ وما بعدها)، وأشار إلى ذٰلك من قبله أبو الشيخ الأصبهاني في «العظمة» (١ / ٢٧١ ـ ٢٨٧)، فانظرهما غير مأمور.

(٣) تداولهما.

مكان مفرط في البرد وهلة؛ فإن ذلك يضرُّ به جدّاً.

ولولا الحرُّ لما نضجت هذه الثمار المُرَّةُ العفصة(١) القاسية، ولا كانت تلين وتطيب وتحسن وتصلح لأن يتفكه بها الناس رطبة ويابسة.

وتأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه؛ فإنها لو كانت ظاهرة ـ كالماء والهواء ـ لكانت محرقة للعالم وما فيه، ولو كانت كامنة لا سبيل إلى ظهورها؛ لفاتت المصلحة المطلوبة منها، فاقتضت الحكمة أن جعلت كامنة؛ قابلة للظهور عند الحاجة إليها، ولبطلانها عند الاستغناء عنها، فجُعلت مخزنة في محلها، تخرج عند الحاجة، وتمسك بالمادة من الحطب وغيره ما احتيج إلى بقائها، ثم تخبىء إذا استغني عنها، وخلقت على وضعٍ وتقديرٍ اجتمع فيه الانتفاع بها والسلامة من ضررها.

قال الله تعالى:

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ التي تُورونَ . أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ المُنْشِئونَ . نَحْنُ جَعَلْناها تَذْكِرَةً ومَتَاعاً للمُقْوِينَ﴾(٢).

○ الوجه السادس عشر:

أن الرب سبحانه له الكمال المطلق الذي يستحق عليه الحمد، وسبحانه لا يصدر منه إلا ما يُحمد عليه، وحمد الله على نوعين:

حمداً يستحقُّه لذاته وصفاته وأسمائه الحسنى.

وحمداً يستحقُّه على أفعاله التي مدارها على الحكمة والمصلحة

---

(١) التي فيها انقباض.

(٢) الواقعة: ٧١ ـ ٧٣.

والعدل والإحسان والرحمة.

فإذا كان محموداً على أفعاله كلها؛ لم يكن فيها منافٍ للحكمة، إذ لو كان فيها ما هو كذلك؛ لم يكن محموداً عليه، وهو سبحانه له الملك وله الحمد، فحمده شاملٌ لما شمله ملكه، ولا يخرج شيء عن حمده، كما لا يخرج شيء عن ملكه.

يوضحه:

○ الوجه السابع عشر:

أن أدلة حكمته وحمده وأدلة ملكه وقدرته متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، وكل ما دل على عموم قدرته ومشيئته وملكه وتصرفه المطلق؛ فهو دالٌّ على عموم حمده وحكمته، إذ إثبات قدرة وملك بلا حكمة ولا حمد ليس كمالاً.

وكل ما دلَّ على عموم حكمته وحمده؛ فهو دالٌّ على ملكه وقدرته، فإن الحمد والحكمة إن لم يستلزما كمال القدرة؛ لم يكن فيهما كمال مطلق، وهذا برهانٌ قطعيٌّ.

ثم يقال: إن جاز القدح في حكمته وحمده؛ جاز القدح في ملكه وربوبيته، بل هو عين القدح في الملك والربوبية؛ كما أن القدح في ملكه وربوبيته قدحٌ في حمده وحكمته.

وهذا ظاهر جدّاً، وهذا شأن كل مثلان حين لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر.

○ الوجه الثامن عشر:

أن هٰذه الأسئلة لا يتوجّه إيرادها على العلم ولا على القدرة، وغاية ما تورَد على العدل والحكمة، وأنها كيف تُجامع عدله وحكمته؟

فنقول: قد اتفق أهل الأرض والسماوات على أن الله تعالى عدلٌ لا يظلم أحداً، حتى أعداؤه المشركون الجاحدون لصفات كماله؛ فإنهم مقرُّون له بالعدل، ومنزهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم معترفون بعدله؛ كما قال تعالى:

﴿فاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِ رَبِّكُمْ ويُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا قَالُوا بَلى شَهِدْنا على أَنْفُسِنَا وغَرَّتْهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾(٢).

فهو سبحانه قد حرَّم الظلم على نفسه، وأخبر أنه لا يُهلك القرى بظلمٍ وأهلها غافلون.

فلا يصح إيراد هٰذه الأسئلة مع اعترافهم بعدله.

يوضحه:

---

(١) الملك: ١١.

(٢) الأنعام: ١٣٠.

○ **الوجه التاسع عشر:**

أن طرق النـاس اختلفت في حقيقـة الـظلم الـذي يُنَزَّهُ عنهُ الربُّ سبحانه وتعالى:

فقالت الجبرية:

هو المحـال الممتنع لذاته؛ كالجمع بين الضدين، وكون الشيء موجوداً معدوماً.

قالوا: لأن الظلم إما التصرف في ملك الغير بغير إذنه، وإما مخالفة الأمر، وكلاهما في حق الله تعالى محال؛ فإن الله مالك كل شيء، وليس فوقه آمر تجب طاعته.

قالوا: وإما تصور وجوده وقدر وجوده؛ فهو عدلٌ كائناً ما كان.

وهٰذا قول جهم ومَن اتَّبعه، وهو قول كثير من الفقهاء أصحاب الأئمة الأربعة وغيرهم من المتكلمين.

وقالت القدريَّة:

الظلم: إضرار غير مستحق، أو عقوبته العبد على ما ليس من فعله، أو عقوبته على ما هو مفعول منه، ونحو ذٰلك.

قالوا: فلو كان سبحانه خالقاً لأفعال العبيد، مريداً لها، قد شاءها وقـدرهـا عليهم، ثم عاقبهم عليهـا؛ كان ظالمـاً، ولا يمكن إثبات كونه سبحـانـه عدلاً لا يظلم إلا بالقـول بأنـه لم يرد وجـود الكفـر والفسـوق والعصيان، ولا شاءها، بل العباد فعلوا ذٰلك بغير مشيئته وإرادته؛ كما فعلوه بغير إذنه وأمره، وهو سبحانه لم يخلق شيئاً من أفعال العباد، لا خيرها ولا

شرها، بل هم أحدثوا أعمالهم بأنفسهم، ولذلك استحقوا العقوبة عليها، فإذا عاقبهم؛ لم يكن ظالماً لهم.

وعندهم أنه يكون ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون؛ فإن المشيئة عندهم بمعنى الأمر.

وهاتان الطائفتان[1] متقابلتان غاية التقابل، وكل منهما تذمُّ الأخرى، وقد تكفرها، وتسميها قَدَرِيَّة.

وقال أهل السنة والحديث ومَن وافقهم:

الظلم وضع الشيء في غير موضعه، وهو سبحانه حكمٌ عدلٌ لا يضع الشيء إلا في موضعه الذي يناسبه، ويقتضيه العدل والحكمة والمصلحة، وهو سبحانه لا يفرِّق بين متماثلين، ولا يساوي بين مختلفين، ولا يعاقب إلا مَن يستحق العقوبة، ويضعها في موضعها؛ لما في ذلك من الحكمة، ولا يعاقب أهل البر والتقوى.

وهذا قول أهل اللغة قاطبة، وتفسير الظلم بذينك التفسيرين اصطلاح حادث ووضع جديد.

قال ابن الأنباري:

«الظلم وضع الشيء في غير موضعه؛ يقال: ظلم الرجل سقاءه: إذا سقى منه قبل أن يخرج منه زبدة. وقال الشاعر:

وَصَاحِبُ صِدْقٍ لَمْ يَنَلْنِي شِكَايَةً
ظَلَمْتُ وفي ظُلْمِي لَهُ عامِداً أَجْرُ

(١) أي: الجبرية والقدرية.

أراد بالصاحب: وطب اللبن، وظلمه إياه: أن يستقيه قبل أن يخرج زبده».

قال: «والعرب تقول: هو أظلم من حية؛ لأنها تأتي الحفر الذي لم تحفره فتسكنه.

ويقال: قد ظلم الماءُ الوادي: إذا وصل منه إلى مكان لم يكن يصل إليه فيما مضى.

وقال الحسن بن مسعود والفراء: أصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه».

قال: «ومنه قولهم: من أشبه أباه فما ظلم، وقولهم: مَن استرعى الذئب فقد ظلم؛ يعنون: مَن أشبه أباه فما وضع الشبه في غير موضعه».

وهٰذا القول هو الصواب المعروف في لغة العرب والقرآن والسنة، وإنما تُحمل ألفاظهما على لغة القوم، لا على الاصطلاحات الحادثة، فإن هٰذا أصل كل فساد وتحريف وبدعة، وهٰذا شأن أهل البدع دائماً، يصطلحون على معان يضمون لها ألفاظاً من ألفاظ العرب، ثم يحملون ألفاظ القرآن والسنة على تلك الاصطلاحات الحادثة.

فأما الجبرية؛ فعندهم لا حقيقة للظلم الذي نزَّه الرب نفسه عنه ألبتة، بل هو المحال لذاته الذي لا يتصور وجوده، وكل ممكن عندهم؛ فليس بظُلم، حتى إنه لو عذب رسله وأنبياءه وأولياءه أبد الآبدين، وأبطل جميع حسناتهم، وحمَّلهم أوزار غيرهم، وعاقبهم عليها، وأثاب أولٰئك على طاعات غيرهم، وحرم ثوابَها فاعِلَها؛ لكان ذٰلك عدلاً محضاً؛ فإن

الظلم من الأمور الممتنعة لذاتها في حقه، وهو غير مقدور له، بل هو كقَلْبِ المُحْدَث قديماً والقديم مُحْدَثاً.

واحتجَّ هٰؤلاء بأن الظلم التصرفُ في غير الملك، أو مخالفة الآمر.

قالوا: ويدل على هٰذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في «مسنده»[1] عن عبدالله بن مسعود؛ قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما أصاب العبدَ قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ، فقال: اللهُمَّ إني عبدُك، ابنُ عبدك، ابنُ أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك؛ سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي، إلا أذهب الله همَّه وغمَّه، وأبدله مكانه فرحاً».

قالوا: يا رسول الله! أفلا نتعلَّمهن؟

قال: «بلى؛ ينبغي لمن سمعَهُنَّ أن يتعلَّمَهنَّ».

فأخبر أن جميع أقضيته في عبده عدلٌ منه، وهٰذا يعمُّ قضاء المصائب، وقضاء المعائب، وقضاء العقوبات على الجرائم، ولهٰذا قال العارفون بالله:

«كلُّ نعمةٍ منه فضل، وكل نقمة منه عدل».

قال إياس بن معاوية:

---

(١) هو فيه (٣٧١٢ ـ شاكر)، وإسناده صحيح كما بين شيخنا الألباني ـ حفظه الله ـ في «سلسلته الصحيحة» (١٩٩)، فانظره غير مأمور؛ فإنه نفيس.

«ما ناظرتُ بعقلي كله إلا القدرية؛ قلتُ لهم: ما الظلم؟ قالوا: أن تأخذ ما ليس لك. قلتُ: فلله كل شيء».

وقال عمران بن حصين لأبي الأسود الدؤلي:

«أرأيتَ ما يكدح الناس اليوم ويعملون فيه، أشيءٌ قُضِي عليهم ونُصَّ مِن قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون فيما أتاهم به نبيُّهم، فأخذت عليهم به الحجة؟».

قال: فهلا يكون ذٰلك ظلماً؟

قال: «ففزعتُ من ذٰلك فزعاً شديداً، وقلتُ: إنه ليس شيء إلا وهو خلق لله، وملك يده، لا يُسأل عما يفعل وهُم يُسألون».

فقال: «سدَّدك الله؛ إني والله ما سألتك إلا لأحرز عقلك».

قالوا: ويكفي في هٰذا قوله تعالى:

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[1].

وقالوا: ونحن نرى في الشاهد أن السيد إذا أمكن عبيده من الفساد، وأنواع القبائح والشرور، وسفك بعضهم دم بعض، وأخذ بعضهم أموال بعض، وهو قادر على منعهم وكفِّهم عن ذٰلك، فلم يفعل، بل خلَّى بينهم وبين ذٰلك، ومكَّنهم منه، وأعانهم عليه، وأعطاهم أسبابه، ثم عاقبهم على ذٰلك؛ كان ظالماً لهم، والله تعالى قد فعل ذٰلك بعبيده، وهو أعدل العادلين، وليس بظلَّامٍ للعبيد، فعلمنا أن الظلم المنزَّه عنه هو المحال بذاته، وأنه غير مقدور.

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

وأصحاب هٰذا القول إنما نزهوا الله عن المستحيل لذاته، الذي لا يُتصور وجوده، ومعلوم أن هٰذا التنزيه يشترك فيه كل أحد، ولا يمدح به أحد أصلاً؛ فإنه لا مدح في كون الممدوح منزهاً عن الجمع بين النقيضين، والله تعالى قد تمدح بعدم الظلم، وأنه لا يريده، ومحالٌ أن يتمدَّح بكونه لا يريد الجمع بين النقيضين، وأنه لا يريد قلب الحادث قديماً، ولا قلب القديم حادثاً، ولا جعل الشيء موجوداً معدوماً في آن واحد.

وأيضاً؛ فإنه سبحانه قال: **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً ولاَ هَضْماً﴾**(1).

قال المفسرون من السلف والخلف قاطبة: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسنات ما عمل.

وعند الجبرية أن هٰذا لو وقع؛ لم يكن ظلماً.

ومن المعلوم أن الآية لم ترفع عنه خوف المحال لذاته، وأنه لا يخاف الجمع بين النقيضين؛ فإنه لا يخاف ذٰلك، ولو أتى بكل كفر وإساءة، فلا يجوز تحريفِ كلام الله بحمله على هٰذا؛ فإن الخوف من الشيء يستلزم تصور وجوده وإمكانه، وما لا يمكن وجوده يستحيل خوفه.

وأيضاً؛ فإنه لا يحسن أن ينفي الجمع بين الضدين في السياق الذي نفى الله فيه الظلم؛ كقوله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ومَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْها ومَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ﴾(2).

---

(1) طه: ١١٢.

(2) فصلت: ٤٦.

فلا يحسن بوجه أن يقال عقيب هٰذه الجملة: وما ربك بجامع للعبيد بين الوجود والعدم في آن واحد، وإنما الظلم المنفي هو خلاف ما اقتضاه قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ ومَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾[1].

وكذلك قوله: ﴿وَلا تُظْلَمونَ فَتِيلاً﴾[2]، ﴿ولا يُظْلَمونَ نَقِيراً﴾[3]، ﴿ولا يُظْلَمونَ شَيْئاً﴾[4].

أي: لا يُتْرك من أعمالهم ما هو بقدر الفتيل والنقير، فيكون ظلماً.

وعند الجبرية يجوز أن يترك ثواب جميع أعمالهم من أولها إلى آخرها بغير سبب يقتضي تركها إلا مجرد المشيئة والقدرة، ولا يكون ذٰلك ظلماً!

وكذٰلك قوله: ﴿وَمَا ظَلَمْناهُمْ ولٰكنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾[5]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾[6].

بيَّن أنه لم يعاقبهم بغير جُرم، فيكون ظالماً لهم، بل عاقبهم بظلمهم أنفسهم.

والمعنى عند الجبرية: أنا تصرفنا فيهم بقدرتنا ومشيئتنا وملكنا، فلم نظلمهم، وإن كانوا مؤمنين محسنين.

وليست الأعمال والسيئات والكفر عندهم أسباباً للهلاك، ولا مقتضية

---

(١) فصلت: ٤٦، الجاثية: ١٥.

(٢) النساء: ٧٧.

(٣) النساء: ١٢٤.

(٤) مريم: ٦٠.

(٥) الزخرف: ٧٦.

(٦) هود: ١٠١.

له، وإنما هو محض المشيئة.

والقرآن يكذب هٰذا القول، ويرده؛ كقوله:

﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذينَ هَادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[1].

وقوله: ﴿فَبِما نَقْضِهِمْ مِيْثاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بآياتِ اللهِ وقَتْلِهِمُ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤمِنُونَ إلاَّ قَليلاً﴾[2].

وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾[3]، ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾[4]، ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً﴾[5]، ﴿وَوَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا﴾[6]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[7].

والقرآن مملوء من هٰذا.

فالظُّلم الذي أثبت الله لهم، وجعله نفس فعلهم وسبب هلاكهم؛ نفوه، وقالوا: ليس من فعلهم، ولا سبب إهلاكهم، والظلم الذي نفاه عن نفسه ـ وهو عقوبتهم بلا سبب ـ أثبتوه له، وقالوا: ليس بظلم؛ فإنه مقدور

---

(١) النساء: ١٦٠.

(٢) النساء: ١٥٥.

(٣) غافر: ٢١.

(٤) الأنعام: ٦.

(٥) نوح: ٢٥.

(٦) النحل: ٨٥.

(٧) الشورى: ٣٠.

ممكن، فنزّهوه عما عابهم به، ووصفوه بما نزّه نفسه عنه، واعتقدوا بذلك أنه به عارفون، ولأهل السنة ناصرون.

ولا يليق به سبحانه أن ينفي عنه الجمع بين النقيضين؛ فإن ما لا يمكن تعلق القدرة به لا يُمدح الممدوح بعدم إرادته، وإنما يكون المدح بترك ما يقدر الممدوح على فعله، وتركه تنزيهاً عما فعله، وإلا؛ فكيف يُمدح الموتى بترك الأفعال القبيحة، وكيف يمدح الزَّمِن بترك طيرانه إلى السماء؟

وأيضاً؛ فإنه سبحانه يمدح نفسه بتحريمه الظلم على نفسه كما في الحديث الإلٰهي[1]:

«يا عبادي! إني حرمتُ الظلمَ على نفسي»[2].

[والمعنى عند الجبرية:] أن أخلق مثلي، أو أجمع بين النقيضين، أو أقلب القديم حادثاً، والحادث قديماً... ونحو ذٰلك من الممتنع لذاته.

وهٰذا لا يجوز أن يُنسب التكلم به إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب العالمين.

وغاية ما يُقال في تأويل ذٰلك على هٰذا القول بعد تحسين العبارة وزخرفتها أني أخبرت عن نفسي أن ما لا يكون مقدوراً أو يكون مستحيلاً لا

---

(١) هو الحديث القدسي.

(٢) أخرجه مسلم (١٦ / ١٣١ - ١٣٣ - نووي)، والنووي في «الأذكار» (ص ٢٦٧ - ٢٦٨)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢ / ٤٧ - ٤٨)؛ كلهم عن أبي ذر.

وله طرق أخرى تكلمت عليها في تخريج أحاديث «الوصية الصغرى» (ص ٥٣).

يقع مني، وهٰذا مما يقطع مَن له فهم عن الله ورسوله أنه غير مراد، وأنه يجب تنزيه الله تعالى ورسوله عن إرادة هٰذا المعنى الذي لا يليق التمدُّح والتعرُّف إلى عباده بمثله.

فإن قيل: حاصل هٰذا أنه لا يُعقل التمدُّح بترك ما يستحيل وقوعه، وهٰذا فاسد، فقد حمد سبحانه نفسه وتمدَّح بعدم اتخاذ الولد، وعدم الشريك والولي من الذل، وهٰذه الأشياء مستحيلة في حقه، فهٰكذا حمد نفسه على تنزُّهه من الظلم، وإن كان مستحيلاً غير مقدور.

قيل: الفرق بين ما هو محالٌ لذاته في نفس الأمر وبين ما هو ممكن أو واقع، لكن يستحيل وصف الرب به، ونسبته إليه.

فالأول: لا يُتمدح به، بل العبد لا يرضى أن يمدح به نفسه، فلا يتمدح عاقلٌ بأنه لا يجمع بين النقيضين، ولا يجعل الشيء متحركاً ساكناً.

وأما الثاني: فإنه ممكن واقع، لٰكن يستحيل اتصاف مَن له الكمال المطلق به؛ كالولد، والصاحبة، والشريك؛ فإن نفي هٰذا من خصائص الربوبية، فنفى سبحانه عن نفسه ما هو ثابت لخلقه، وهم متصفون به لمنافاته لكماله؛ كما نزه نفسه عن السِّنَة والنَّوم واللُّغوب والنسيان والعجز والأكل والموت وغير ذٰلك مما هو مستحيل عليه ممتنع في حقه، ولكنه واقع من العباد، فكان في تنزيهه عنه ما يبيِّن انفراده بالكمال، وعدم مشابهته لخلقه؛ بخلاف ما لا يتصور وقوعه في نفس الأمر، وهو مستحيل في نفسه؛ كجعل المخلوق خالقاً، وجعل الخالق مخلوقاً؛ فإن هٰذا لا يَتَمَدَّح سبحانه بنفيه، ولهٰذا لا يتمدح به مخلوق فضلاً عن الخالق.

يوضحه: أن ما تمدح به سبحانه فهو من خصائصه التي لا يشركه فيها

أحد، وسلب فعله المستحيل الذي لا يدخل تحت القدرة ولا يتصور وقوعه ليس من خصائصه، ولا هو كمالٌ في نفسه، ولا يستلزم كمالاً، فإذا مدح نفسه بكونه لا يجمع بين النقيضين؛ كان كل أحد مشاركاً له في هٰذا المدح؛ بخلاف ما إذا مدح نفسه بكونه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يموت ولا ينسى ولا يخفى عليه شيء ولا يظلم أحداً، وهو سبحانه يثني على نفسه بفعل ما لو تُرِك كان تركه نقصاً، وبترك ما لو فعله كان فعله نقصاً.

وهٰذا لا حقيقة له عند الجبرية، والاعتبار عندهم بكون المفعول والمتروك ممكناً.

فقابلتهم القدرية، فجعلوا الظلم الذي تنزه سبحانه عنه مثل الظلم الذي يكون من العباد، وشبَّهوا فعله بفعل عبيده، فتسلط عليهم الجبرية بأنواع المناقضات والمعارضات، وكان غاية ما عند كل واحد من الفريقين مناقضة الآخر، وإفساد قوله، فكفوا أهل السنة مؤنتهم.

فصلٌ

وأما ما احتجَّ بْه الجبريةُ مِن قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾[1]؛ فدليل حقٍّ استُدِلَّ به على باطل؛ فإن الآية إنما سيقت لبيان توحيده سبحانه، وبطلان إلٰهية ما سواه، وأن كل مَن عداه مربوبٌ مأمورٌ منهيٌّ مسؤولٌ عن فعله، وهو سبحانه ليس فوقه من يسأله عما يفعل.

قال تعالى:

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ . لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ . لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(١).

فلم تكن الآية مسوقة لبيان أنه لا يفعل بحكمة ولا لغاية محمودة مطلوبة الفعل، وأنه يفعل ما يفعله بلا حكمة ولا سبب ولا غاية، بل الآية دلَّت على نقيض ذٰلك، وأنه لا يُسأل عما يفعل؛ لكمال حكمته وحمده، وأن أفعاله صادرة عن تمام الحكمة والرحمة والمصلحة، فكمال علمه وحكمته وربوبيته ينافي اعتراض المعترضين عليه وسؤال السائلين له.

وهم حملوا الآية على أنه لا يُسأل عما يفعله؛ لقهره وسلطانه، ومعلوم أن هٰذا ليس بمدح من كل وجه، وإن تضمّن مدحاً من جهة القدرة والسلطان، وإنما المدح التامُّ أن يتضمَّن ذٰلك حكمته، وحمده، ووقوع أفعاله على أتم المصالح، ومطابقته للحكمة والغايات المحمودة، فلا يُسأل عما يفعله؛ لكمال ملكه وكمال حمده، فله الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

فاستدلال نفاة الحكمة بهٰذه الآية كاستدلال نفاة الصفات بقوله تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾**(٢).

والآيتان دالَّتان على ضد قول الطائفتين، فليس كمثله شيء؛ لكمال صفاته التي بكمالها وقيامها به لم يكن كمثله شيء، ولا يسأل عما يفعل؛ لكمال حكمته وحمده.

---

(١) الأنبياء: ٢١ - ٢٣.

(٢) الشورى: ١١.



فصلٌ

وأمـا قوله في حديث ابن مسعود: «ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك»؛ فعند أهل السنة: الجميع قضاؤه، والجميع عدلٌ منه في عبده، لا بمعنى كونه متصرفاً فيه بمجرَّد القدرة والمشيئة، بل بوضع القضاء في موضعـه، وإصـابة محله، فكلُّ ما قضاه على عبده؛ فقد وضعه موضعه اللائق به، وأصاب به محلّه الذي هو أولى به من غيره، فلم يظلمه به.

أما العقوبات والمصائب؛ فالأمر فيها ظاهر، إذ هي عدلٌ محضٌ؛ كما قال تعالى:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيْبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[1].

وأمـا الآلام التي تُصيب العبـد بغير ذنب؛ كالآلام التي تُنـال غير المكلَّفين؛ كالأطفال، والمجانين، والبهائم؛ فقد خاض الناس في أسبابها وحكمها قديماً وحديثاً، وتباينت طرقهم فيها بعد اتفاقهم على أنها عدل، وإن اختلفوا في وجه كونها عدلاً.

فالجبرية تثبت ذٰلك على أصولها في أن كل واقع أو ممكن عدل.

والقدرية جعلت وجه كونه عدلاً وقوعها بسبب جُرم سابق، أو عِوَض لاحق، ثم منهم من يعتبر مع ذٰلك أن يشتمل على غيره.

قالوا: فوقوعها على وجه العقوبة بالجرم، والتعويض؛ يخرجها عن كونها ظلماً، وبقصد العبرة تخرج [عن] كونها سفهاً.

---

(١) الشورى: ٣٠.

وأما الفلاسفة؛ فإنهم جعلوا ذٰلك من لازم الخِلْقَةِ فيه، ومقتضيات النشأة الحيوانية، وقالوا:

ليس في الإمكان إلا ذٰلك، ولو فرض غير ذٰلك؛ لكان غير هٰذا العالم؛ فإن تركيب الحيوان الذي يكون ويفسد يقتضي أن تعرض له الآلام كما يعرض له الجوع والعطش والضجر ونحوها.

وقالوا: رفع هٰذا بالكلية إنما يكون برفع أسبابه، والخير الذي في أسبابه أضعاف أضعاف الشر الحاصل بها، فاحتمال الشر القليل الجزئي في جنب المصلحة العامة الكلية أولى من تعطيل الخير الكثير؛ لما يستلزمه من المفسدة اليسيرة الجزئية.

قالوا: ومن تأمل أسباب الآلام؛ وجد ما في ضمنها من اللَّذَّات والخيرات والمصالح أضعاف أضعاف ما في ضمنها من الشرور؛ كالحرِّ، والبرد، والمطر، والثلج، والريح، وتناول الأغذية والفواكه، وأنواع الأطعمة، وصنوف المناكح، وأنواع الأعمال والحركات؛ فإن الآلام إنما تتولد غالبها عن هٰذه الأمور التي مصالحها ولذتها وخيراتها أكثر من مفاسدها وشرورها وآلامها.

وهٰذه الطرق الثلاثة سلكها طوائف من المسلمين، وفي كل طريق منها حقٌّ وباطل، فإذا أخذت من [كل] طريق حقها، ورميت باطلها؛ كنت أسعد الناس بالحق.

وأصحاب المشيئة المحضة أصابوا في إثبات عموم المشيئة والقدرة، وأنه لا يقع في الكون شيء إلا بمشيئته، فخذ من قولهم هٰذا القدر، وألق

منه إبطال الأسباب والحكم والتعليل، ومراعاة مصالح الخلق.

والقدرية أصابوا في إثبات ذٰلك، وأخطؤوا في مواضع:

أحدها: إخراج أفعال عباده عن ملكه وقدرته ومشيئته.

الثاني: تعطيلهم عود الحكمة والغاية المطلوبة إلى الفاعل، وإنما أثبتوا أنواع حكمة تعود إلى المفعول لا إلى الفاعل.

والثالث: أنهم شبَّهوا الله بخلقه فيما يحسن منهم وما يقبح، فقاسوه في أفعاله على خلقه، واعتبروا حكمته بالحكمة التي لعباده.

فخذ من قولهم أنه حكيم لا يفعل إلا لمصلحة وحكمة، وأنه لا يفعل الظلم مع قدرته عليه، بل تنزَّه عنه؛ لغناه وكماله، وأنه لا يعاقب أحداً بغير ذنب، ولا يعاقبه بما لم يفعله؛ فضلاً عن أن يعاقبه بفعلٍ هو فَعَلَه فيه أو فِعْلِ غيرِه فيه، وأنه جعل الأسباب مقتضيات لغاياتها، وألقِ من قولهم إنكارَهم خلقه لأفعاله عباده، وإنكارَ عَوْدِ الحكمة إليه، وقياسَ أفعاله على أفعال عباده.

والفلاسفة فيما أصَّلوه من أن تعطيل أسباب الخيرات والمصالح العظيمة لما في ضمنها من الشرور والآلام الجزئية منافٍ للحكمة، فهٰذا أصل في غاية الصحة، لكن أخطؤوا في ذٰلك أعظم خطإ، وهو جعلهم ذٰلك من لوازم الطبيعة المجردة؛ من غير أن تكون متعلقة بفاعل مختار قدَّر ذٰلك بمشيئته وقدرته واختياره، ولو شاء لكان الأمر على خلاف ذٰلك؛ كما يكون في الجنة؛ فإنها مشتملة على الخيرات المحضة البريئة من هٰذه العوارض من كل وجه، فاقتضت حكمته أن تكون هٰذه الدار على ما هي

عليه؛ ممزوجاً خيرها بشرها، ولذاتها بآلامها، وأن تكون دار القرار خالصة من شوائب الآلام والشرور خلاصاً تامّاً، وأن تكون دار الشقاء خالصة للآلام والشرور.

وإذا جمعت حقَّ هٰذه الطائفة، وأثبتَّ لله تعالى صفات الكمال، وأنه يُحِب، ويُحَب، ويفرح بتوبة عباده وطاعاتهم، ويرضى بها، ويضحك، ويثني عليهم بها، ويجب أن يُثنى عليه ويُحمد ويُشكر، ويفعل ما له من فعله غاية وحكمة يحبها ويرضاها، فيفعل لأجلها؛ كنت أسعد بالحق من هٰؤلاء.

فصلٌ

أعلم أن من أعظم حكمة الرَّبِّ وكمال قدرته ومشيئته خلق الضدين، إذ بذٰلك تعرف ربوبيته وقدرته وملكه؛ كالليل والنهار، والحرِّ والبرد، والعلو والسفل، والسماء والأرض، والطيب والخبيث، والداء والدواء، والألم واللَّذَّة، والحسن والقبيح، فمن كمال قدرته وحكمته خلق جبريل وخَلَقَك[1]، خَلَقِ أطيب الأرواح وأزكاها وأطهرها وأفضلها، وأجرى على يديه كل خير، وخلق أنجس الأرواح وأخبثها وأرداها، وأجرى على يديه كل شر وكفر وفسوق ومعصية، وجعل الطيب منحازاً إلى تلك الروح، والخبيث منحازاً إلى هٰذه الروح، فتلك مغناطيس كل طيب، وهٰذه مغناطيس كل خبيث، وأي حكمة أبلغ من هٰذا؟!

يوضحه: أن المادة الأرضية مشتملة على الطيب والخبيث، وقد

---

(١) أي: إبليس.

اقتضت الحكمة أن خلق منها آدم وذريته، فلا بد أن يأتي بنو آدم كذٰلك؛ مشاكلتهم لمادتهم، والمادة النارية فيها الخير والشر، فلا بد أن يأتي المخلوق منها كذٰلك.

والله تعالى يريد تخليص الطيب من المادة الأرضية من الخبيث؛ ليجعل الطيب مجاوراً له في دار كرامته، مختصّاً برؤيته والقرب منه، ويجعل الخبيث في دار الخبث، حظه البعد منه والهوان والطرد والإبعاد، إذ لا يليق بحمده وحكمته وكماله أن يكون مجاوراً له في داره مع الطيبين.

فأخرج من المادة النارية مَن جعله محركاً للنفوس، داعياً لها إلى محل الخبث؛ لتنجذب إليه النفوس الخبيثة بالطبع، وتميل إليه بالمناسبة، فتتحيز إلى ما يناسبها وما هو أولى بها حكمةً ومصلحةً وعدلاً، لا يظلمها في ذٰلك بارئها وخالقها، بل أقام داعياً يظهر بدعوته إياها واستجابتها له ما كان معلوماً لبارئها وخالقها من أحوالها، وكان خفيّاً على العباد، فلما استجابت لأمره، ولبّت دعوته، وآثرت طاعته على طاعة ربها ووليها الحقِّ الذي تتقلَّب في نعمه وإحسانه؛ ظهر لملائكته ورسله وأوليائه حكمتُه وعدلُه في تعذيب هٰذه النفوس وطردِها عنه وإبعادِها عن رحمته.

وأقام للنفوس الطيبة داعياً يدعوها إليه، وإلى مرضاته وكرامته، فلبّت دعوته، واستجابت لأمره، فعلم عبادُه حكمتَه في تخصيصها بمثوبته وكرامته، فظهر لهم حمدُه التامُّ، وحكمتُه البالغة في الأمرين، وعلموا أنه خَلْق عدوِّ الله إبليس وجنوده وحزبه وخلق وليِّه وعبده جبريل وجنوده وحزبه هو عين الحكمة والمصلحة، وأن تعطيل ذٰلك منافٍ لمقتضى حكمته وحمده.

يوضحه: أن من لوازم ربوبيته تعالى وإلٰهيته إخراج الخبء في السماوات والأرض؛ من النبات، والأقوات، والحيوان، والمعادن وغيرها، وخبء السماوات ما أودعها من أمره الذي يُخرجه كل وقت بفعله وأمره، وهٰذا من تدبيره لملائكته، وتصرفه في العالم العلوي والسفلي، فبإخراج هٰذا الخبء تظهر قدرته ومشيئته وعلمه وحكمته.

وكذٰلك النفوس فيها خبء كامن يعلمه سبحانه منها، فلا بد أن يقيم أسباباً يُظْهِر بها خبء النفوس الذي كان كامناً فيها، فإذا صار ظاهراً عياناً؛ ترتَّب عليه أثره، إذ لم يكن يترتَّب على نفس العلم به دون أن يكون معلوماً واقعاً في الوجود.

قال تعالى:

﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المؤمِنينَ على مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾(١).

وقال تعالى:

﴿وهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ وكَانَ عَرْشُهُ عَلى الماءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٢).

فأخبر أنه خلق العالم العلويَّ والسفليَّ ليبلو عباده، فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه ممَّن يعصيه ويخالفه.

وهٰذا الابتلاء والامتحان يستلزم أسباباً يحصل بها، فلا بد من خلق أسبابه.

---

(١) آل عمران: ١٧٩.
(٢) هود: ٧.

ولهٰذا لما كان من أسبابه خلق الشهوات وما يدعو إليها وتزيينها؛ فَعَل ذٰلك، وقال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنا مَا عَلى الأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1].

فهٰذه ثلاثة مواضع في القرآن تبيِّن حكمته في خلق أسباب الابتلاء والاختبار، فظهر أن مِن بعض الحِكَم في خلق عدو الله إخراج خبء النفس الخبيثة التي شرُّها وخبثُها كامنٌ فيها، فأخرج خبأها بزناد دعوته كما يُخْرَج خبء النار بقدح الزناد، وكما يُخْرَج خبء الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يُخْرَج خبء الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يُخْرَج خبء القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليها.

فكم له سبحانه من حكمة بالغة وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس؟!

فإن من كمال الحكمة والقدرة إظهار شرف الأشياء الفاضلة بأضدادها، فلولا الليل؛ لم يظهر فضل النهار ونوره وقدره، ولولا الألم؛ لم يُعرف فضل اللذة وشرفها وقدرها، ولولا المرض؛ لم يُعرف فضل العافية، ولولا وجود قبح الصورة؛ لم يظهر فضل الحسن والجمال.

ولهٰذا كان خلق النار وعذاب أهلها فيها أعظم لنعيم أهل الجنة وأبلغ في معرفة قدرها وخطرها، فكان خلق هٰذا القبيح الشنيع المنظر والمَخْبَر الذي صورتُه أشنع من باطنه، وباطنه أقبحُ من صورته؛ مكملاً لحسن تلك الروح الزكية الفاضلة التي كمل الله تعالى بصورتها جمال الظاهر والباطن.

---

(١) الكهف: ٧.

فلو كان الخلق كلهم على حُسن يوسف مثلاً؛ فأي فضيلة وتمييز يكون له؟! ولو كانت الكواكب كلها شموساً وأقماراً؛ فأي مزية كانت تكون للنيرين[1]؟!

فصلٌ

إن كمال العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة، والدواعي إلى الشهوات، والإرادات المخالفة للعبودية، وكذلك الإيمان إنما تتبيَّن حقيقته عند المعارضة والامتحان، وحينئذ يتبين الصادق من الكاذب.

قال الله تعالى:

﴿الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ . ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذينَ صَدَقُوا ولَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبينَ﴾[2].

وقال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ ويَعْلَمَ الصَّابِرينَ﴾[3].

وقال تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ

---

(١) هما الشمس والقمر.

(٢) العنكبوت: ١ - ٣.

(٣) آل عمران: ١٤٢.

مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وزُلْزِلُوا﴾[1].

فالجنة لا ينالها المكلَّفون إلا بالجهاد والصبر، فخلق الشياطين وأوليائهم وجندِهم من أعظم النعم في حق المؤمنين؛ فإنهم بسبب وجودهم صاروا مجاهدينَ في سبيل الله، يحبُّون لله، ويُبغضون لله، ويوالون فيه، ويعادون فيه، ولا تَكْمُلُ نفس العبد ولا يَصْلُحُ لها الزكاء والفلاح إلا بذلك[2].

وفي التوراة أن الله تعالى قال لموسى:

«اذهب إلى فرعون؛ فإني سأقسي قلبه؛ لتظهر آياتي وعجائبي، ويُتَحَدَّث بها جيلاً بعد جيل»[3].

وتكذيب المشركين لمحمد ﷺ، وسعيهم في إبطال دعوته ومحاربته؛ كانت من أعظم النعم عليه وعلى أمته، وإن كان من أعظم النقم على الكافرين.

فكم حصل في ضمن هذه المعاداة والمحاربة لرسول الله ﷺ ولأصحابه ولأمته من نعمة؟!

وكم رفعت بها درجة؟!

وكم قامت بها لدعوته من حجة؟!

وكم أعقب ذلك من نعيم مقيم وسرور دائم؟!

ولله كم من فرحة وقرة عين في مغايظة العدو وكبته؟! فما طاب

---

(١) البقرة: ٢١٤.

(٢) انظر رسالتي: «الحب والبغض في الله»؛ ففيها تفصيل ذلك.

(٣) انظر (ص ٢٩).

العيش إلا بذٰلك، فمعظم اللَّذَّة في غيظ عدوك، فمِن أعظم نعم الله على عباده المؤمنين أن خلق لهم مثل هٰذا العدو، وإن القلوب المشرقة بنور الإيمان والمعرفة لتعلم أن النعمة بخلق هٰذا العدو ليست بدون النعمة بخلق أسباب اللّذّة والنعمة، فليست بأدنى النعمتين عليهم، وإن كانت مقصودة لغيرها؛ فإن الذي يترتَّب عليها من الخير المقصود لذاته أنفع وأفضل وأجلُّ من فواته.

فإن قيل: إذا كان خلق إبليس وجنوده من أعظم النعم على المؤمنين؛ فأي حكمة ومصلحة حصلت لهٰؤلاء بخلقهم؟ فكيف اقتضت الحكمة أنْ خَلَقَهُم لضررهم المحض لأجل منفعة أولٰئك؟ وإذا أثبتُّم اقتضاء الحكمة لذٰلك؛ طولبتم بأمر هو أشكل عليكم من هٰذا، وهو أن ما جُعِل من المضارِّ وسيلة إلى حصول غيره إن لم تكن الغاية حاصلة منه وإلا كان تفويته أولى لما في تفويته من عدم الشر والفساد، وهٰذه الوسيلة قد ترتَّبَ عليها دخول واحد من الألف إلى الجنة وتسع مئة وتسعة وتسعين إلى النار، فأين الحكمة والمصلحة التي حصلت للمكلَّفين في خلق الشياطين؟ فهٰذان سؤالان في هٰذا المقام لا يتم مقصودكم إلا بالجواب عنهما.

قيل: حاصل السؤالين أنه أي مصلحة في خلق الشياطين والكفرة لأنفسهم، وأن مفسدة من خُلِقوا لمصلحته بهم أضعاف ما حصل لهم من المصلحة.

والجواب عنها من عدة مسالك:

المسلك الأول: أنا وإن علَّلنا أفعال الرب بالحكم؛ فإنا لا نوجب عليه رعاية المصالح، بل نقول: إنَّ له في كل ما خلقه حكمة تعجز العقول

عن الإحاطة بها، وحكمته أعلى وأعظم أن توزن بعقولنا، وقد بيَّنّا بعض الحكم في خلقهم، وما يترتب عليها مما هو أحبُّ إليه من فواته، وهٰذا المحبوب له وإن استلزم وجوده مسألة في حق ذٰلك المخلوق؛ فالحكمة الحاصلة بخلقه أعظم من تلك المفسدة، وهٰذا كما أن المصلحة والمفسدة الحاصلة من ذبح القرابين والهدي والإنساك والضحايا وغيرها أعظم من المفسدة الحاصلة للحيوان بالذبح، والكفار قرابين أهل الإيمان.

المسلك الثاني: أنا نعلل أفعاله سبحانه بالمصالح، لكن لا على الوجه الذي سلكه أهل القدر والاعتزال من رعاية المصالح التي اقترحتها عقولهم، وحكمت بأنه هو أصلح، وهٰذا مسلك باطل يقابِل في البطلان مسلك خصومهم من الجبرية الذين يُنْكِرون أن يفعل لغاية، أو يكون لفعله علة ألبتة.

فنقول: نعم؛ في خلقهم أعظم المصالح التي هي فعل من ليس كمثله شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل هو منزه عن مشابهة خلقه في شيء من ذٰلك.

ثم لنا في هٰذا المسلك طريقان:

أحدهما: أن نقول: خُلقوا لمصلحتهم؛ من معرفته سبحانه، وعبادته، وطاعته، وفُطِروا على ذٰلك، وهُيِّئوا له، ومُكِّنوا منه، وجُعِل فيهم الاستعداد والقبول، وبهٰذا قامت حُجَّة الله عليهم، وظهر عدلُه فيهم، فلما أبَوْا واستكبروا أن ينقادوا لطاعته وتوحيده ومحبته؛ كانوا هم الظالمين المعتدين المستحقين للعذاب، فجعل تعذيبهم من تمام نعيم أوليائه، ومصلحة محضة في حقهم؛ فإنهم لما فوتوا المصالح التي خلقوا لأجلها،

واستحقوا عليها العقوبة؛ صارت تلك العقوبة مصالح لأوليائه.

وهٰذا بمنزلة ملك له عبيدٌ هيَّأ كل واحد منهم لخدمته والقرب منه والحظوة بكرامته، فأبى بعضهم ذٰلك، ولم يرض به، فسلط الملك عبيده المطيعين له عليهم، وقال: أبحتكم دماءهم وأموالهم ونساءهم ومساكنهم؛ شكراً لكم على طاعتي، وعقوبة لهم على استكبارهم عنها، وأريتكم عظيم نعمتي عليكم بما أنزلت بهم من نقمتي؛ فإنكم لو عملتم مثل عملهم؛ جَعَلْتكم بمنزلتهم. فكلما شاهدوا عقوبتهم؛ ازدادوا محبةً ورغبةً وذكراً وشكراً للملك واجتهاداً في طاعته وبلوغ مرضاته، وتلك العقوبة التي نالتهم إنما هي بسبب أعمالهم، لم يظلمهم الملك شيئاً، ولله المثل الأعلى، والنعمة السابغة، والحجة البالغة.

قال الله تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ وكَانَ اللهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾(١).

فتأمل ما تحت هٰذا الخطاب من العدل واللطف والرحمة، وأنه سبحانه ليس له غرض في تعذيبكم، ولا يعذِّبكم تشفياً، ولا لحاجة به إلى ذٰلك، ولا هو ممَّن يعذب سُدى وباطلاً بلا موجب ولا سبب، ولكن لما تركتم الشكر والإيمان، واستبدلتم بها الكفر والشرك، وجحود حقه عليكم، وإنكار كماله، وأبدلتم نعمته كفراً؛ أحللتم بأنفسكم جزاء ذٰلك وعقوبته، وسعيتم بجهدكم إلى دار العقوبة؛ ساعين في أسبابها، بل دعاته ورسله تمسك بأيديكم وحُجَزِكم عن الطريق الموصلة إلى محل عذابه، وأنتم

(١) النساء: ١٤٧.

تجاذبونهم أشدَّ المجاذبة، وتتهافتون فيها، ولم يكفكم ذلك، حتى بغيتم طريق رضاه ورحمته عوجاً، وصددتُم عنها، ونفَّرْتم عباده عنها بجهدكم، وآثرتم موالاة عدوِّه على موالاته وطاعته، فتحيَّزتم إلى أعدائه؛ متظاهرين عليه، ساعين في إبطال دعوته الحق، فما يفعل سبحانه بعذابكم لولا أنكم أوقعتم أنفسكم فيه بما ارتكبتم.

وهٰذا المسلك ظاهر المصلحة والحكمة والعدل في حقهم، وإن كانوا هم الذين فوَّتوا على أنفسهم المصلحة؛ قال الله تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ولٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

وهٰـذا الأمر لا بد أن يشهدوه إذا بُعثِر ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور، ويُقِرُّوا به، ولا يبقى عندهم ريب ولا شك.

وتأمل قوله الحق: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[2].

وقوله: ﴿ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[3].

كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذَّاتها وفرحها؛ عقوبةً لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم، المتحبِّب إليهم بآلائه، فقابلوا ذٰلك بنسيان ذكره، والإعراض عن شكره، فبدَّل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطَّلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به، وتتألم

(١) النحل: ١١٨.

(٢) التوبة: ٦٧.

(٣) الحشر: ١٩.

بفوته غاية الألم.

ونحن في هٰذا المسلك عن غنية أن نقول: إن تعذيبهم غير مصلحتهم؛ كما قاله غير واحد من أرباب المقالات؛ كما حكاه عنهم الأشعري وغيره؛ فإن هٰؤلاء لم يثبتوا وجه المصلحة لهم في تعذيبهم، بل أرسلوا القول بذٰلك إرسالاً، وكأنهم حاموا حول أمر لم يمكنهم وروده، وهو أن هٰؤلاء، وإن كانوا به مشركين، ولحقِّه جاحدين؛ فإنهم إنما خُلِقوا على الفطرة السليمة التي هي دين الله، ولكن عرض لهم ما نقلهم عنها، حتى فسدت، وبطل حكمها، وصار الناقل لهم عنها هو الحاكم عليها العامل فيهم.

وهٰذا أمرٌ خارج عن مقتضى الخِلْقَةِ وأصل الفطرة؛ كما أخبر به النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في «صحيحه»[1] عن عياض بن حمار المجاشعي عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال:

«إني خلقتُ عبادي حُنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشرِكوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً».

وفي «الصحيحين»[2] من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

«مَا من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه».

---

(١) فيه (١٧ / ١٩٧ - ١٩٨ - نووي).

(٢) البخاري (٣ / ٢٤٥ - ٢٤٦ - فتح)، ومسلم (٢٦٥٨ و٢٦٥٩).

فأخبر أن أصل ولادتهم ونشأتهم على الفطرة، وأن التهويد والتنصير والتمجيس طارئٌ طرأ على الفطرة، وعارضٌ عرض لها، واقتضى هٰذا العارض الذي عَرَض للفطرة أموراً استلزمت ترتيب آثارها عليها بحسب قوتها وضعفها، فالآلام والعقوبات المترتبة على ذٰلك من جنس الآلام والعقوبات المترتبة على خروج البدن عن صحته، وهو إنما خُلِق على الصحة والاعتدال، فإذا استشعر كذٰلك؛ لم يعرض له ألم، وكذٰلك القلب فُطِر على الفطرة الصحيحة، فلما عَرَض له الفساد؛ ترتب على ذٰلك العارض أثره من الآلام والعقوبات.

ولا ريب أن ذٰلك العارض ليس في أصل الفطرة بحيث يستحيل زواله، بل هو ممكن الزوال، والناس في زواله والسرعة والبطء فيه متفاوتون أعظم التفاوت:

ـ فمنهم من زال عنه بمجرَّد الدعوة، فحين عاد إلى موجب الفطرة؛ أجاب الداعي من غير توقف.

ـ ومنهم من توقَّف لقوَّة العارض، فاحتاج مع الدعوة إلى موعظة تتضمن ترهيبه وترغيبه.

ـ ومنهم من غلبت عليه المادة الفاسدة، فاحتاج مع ذٰلك إلى المجادلة.

ـ ومنهم من كان العارض أشد من ذٰلك، فعُدِل معه إلى الجِلَادِ والمحاربة ونوعٍ من العقوبة، فأزال ذٰلك تلك المادة، وأعاد الفطرة إلى صحتها.

ـ ومنهم من كان فساد فطرته قد استحكم وتمكَّن، فصار له بمنزلة الصفة الثابتة، ولم يكن بدٌّ من أن يحتمي عنه؛ ليزول ذلك الخبث، ويتخلص منه، ويعود على ما خُلق عليه أولاً.

ولهذا؛ لما خرج خبث الموحدين من أهل الكبائر بسرعة؛ تعجل خروجهم من النار، وعادوا إلى ما خُلقوا عليه أولاً من كمال النشأة وزوال موجب هذا العذاب، فلم يبق لهم مصلحة في التعذيب بعد ذلك.

ـ وأما المشركون؛ فلما كان العارِض استحكم فيهم، وصار كالهيئة والصفة؛ استمروا في النار تُحْمى عليهم أشدّ الحَمْو؛ لقوة ذلِك الخبث ولزومه لهم، ومعلوم أنه لو فارقهم في الدنيا وانسلخوا منه؛ لم يعذَّبوا، فإذا فارقهم في النار وانسلخوا منه؛ زال موجب العذاب، فعمل مقتضى الفطرة عمله، وأبدلوا ذلك بوجوه هذا أحدها.

الوجه الثاني: أن الله تعالى لم يخلق شيئاً يكون شرّاً محضاً من كل وجه، لا خير فيه بوجه من الوجوه؛ فإن هذا ليس من الحكمة، بل ذلك لا يكون إلا عدماً محضاً، والعدم ليس بشيء.

والوجود إما خير محضٌ، وإما خيرٌ غالب، وإما أن يكون فيه خير من وجه وشر من وجه، فأما أن يكون شرّاً من كل وجه؛ فهذا ممتنع، ولكن قد يظهر ما فيه من الشر ويخفى ما في خلقه من الخير، ولهذا قال تعالى للملائكة ـ وقد سألوا عن خلق هذا القسم؟ فقالوا: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ**﴾ ـ؛ قال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمونَ**﴾[1].

(١) البقرة: ٣٠.

فإذا كانت الملائكة؛ مع قربهم من الله، وعلمهم بأسمائه وصفاته، وما يجب له، ويمتنع عليه؛ لم تعلم حكمته سبحانه في خلق مَن يُفْسِد كما يعلمها الله، بل هو سبحانه متفردٌ بالعلم الذي لا يعلمونه؛ فالبشر أولى بأن لا يعلموا ذٰلك، فالخير كله في يدي الرب، والشر ليس إليه، فلا يدخل في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وإن دخل في مفعولاته ـ بالعَرَض لا بالذات، وبالقصد الثاني لا الأول ـ دخولاً إضافيّاً.

وأما الخير؛ فهو داخل في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ومفعولاته؛ بالذات والقصد الأول.

فالشر إنما يُضاف له مفعوله لا فعله، وفعله خيرٌ محضٌ، وهٰذا من معاني أسمائه المقدسة؛ كالقدوس، والسلام، والمتكبر.

فالقدُّوس: الذي تقدَّس عن كل عيب، وكذٰلك السلام، وكذٰلك المتكبر.

قال ميمون بن مهران:

«تكبَّر عن السوء والسيئات، فلا يصدر منه إلا الخيرات، والخيرات كلها منه».

فهو الذي يأتي بالحسنات، ويذهب بالسيئات، ويصلح الفاسد، ولا يفسد الصالح، بل ما أفسد إلا فاسداً، وإن كان الظاهر الذي يبدو للناس صالحاً، فهو يعلم منه ما لا يعلم عباده.

والمقصود أن الشرور هي الأعدام ولوازمها، فالشر ليس إلا الذنوب وموجباتها، وسيئات الأعمال، وسيئات الجزاء، وهي مترتبة على عدم

الإيمان والطاعة وموجباتها.

فإذا أراد الله بعبده الخير؛ أراد من نفسه سبحانه أن يوفِّقه له ويعينه عليه، فيوجد منه، فيترتَّب عليه من الأمور الوجودية ما فيه صلاحُه وسعادتُه.

فإذا لم يرد به خيراً؛ لم يرد من نفسه أن يعينه ويوفقه، فيبقى مستمرّاً على عدم الخير الذي هو الأصل، فيترتَّب على هٰذا العدم فَقْدُ الخير وأسبابه، وذٰلك هو الشر والألم.

فإذا بقيت النفس على عدم كمالها الأصلي ـ وهي متحركة بالذات، لم تخلق ساكنة ـ؛ تحركت في أسباب مضرتها وألمها، فتُعاقَبُ بخلقِ أمورٍ وجوديَّة يريدُ الله سبحانه تكوينها؛ عدلاً منه في هٰذه النفس، وعقوبةً لها، وذٰلك خيرٌ من جهة كونه عدلاً وحكمةً وعبرةً، وإن كان شرّاً بالإضافة إلى المعذَّب والمعاقَب، فلم يخلق سبحانه شرّاً مطلقاً، بل الذي خلقه من ذٰلك خيرٌ في نفسه وحكمةٌ وعدلٌ، وهو شرٌّ نسبيٌّ إضافيٌّ في حقِّ مَن أصابه؛ كما إذا أنزل المطر والثلج والرياح وأطلع الشمس؛ كانت هٰذه خيرات في نفسها، وحكم، ومصالح، وإن كانت شرّاً نسبيّاً إضافيّاً في حق مَن تضرَّر بها.

وبالجملة؛ فالكلمة الجامعة لهٰذا هي الكلمة التي أثنى بها رسول الله ﷺ على ربه، حيث يقول:

«والشر ليس إليك».

فالشر لا يضاف إلى مَن الخير بيديه، وإنما يُنسب إلى المخلوق؛ كقوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ . مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[1] .

فأمره أن يستعيذ به من الشر الذي في المخلوق، فهو الذي يعيذ منه، وينجي منه، وإذا أخلى العبد قلبه من محبته والإنابة إليه وطلب مرضاته، وأخلى لسانه من ذكره والثناء عليه، وجوارحه من شكره وطاعته، فلم يرِدْ من نفسه ذلك، ونسيَ ربه؛ لم يرد الله سبحانه أن يعيذَه من ذلك الشر، ونسيه كما نسيه، وقطع الإمداد الواصل إليه منه كما قطع العبد العبودية والشكر والتقوى التي تناله من عباده .

قال تعالى :

﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحومُها ولا دِماؤهَا ولٰكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ﴾[2] .

فإذا أمسك العبد عما ينالُ ربَّه منه؛ أمسك الرب عما ينال العبدَ من توفيقه .

وقد صرح سبحانه بهٰذا المعنى بعينه في قوله تعالى :

﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3] .

أي : نخلي بينهم وبين نفوسهم التي ليس لهم منها إلا الظلم والجهل .

وقال تعالى :

---

(١) الفلق : ١ ـ ٢ .

(٢) الحج : ٣٧ .

(٣) الأنعام : ١١٠ .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾(١).

وقال تعالى :

﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾(٢).

فعدم إرادته تطهيرهم ، وتخليته بينهم وبين نفوسهم ، أوجب لهم من الشرِّ ما أوجبه .

فالذي إلى الرب وبيده ومنه هو الخير.

والشَّر كان منهم مصدرُه ، وإليهم كان منتهاه ، فمنهم ابتدأت أسبابه ؛ بخذلان الله تعالى لهم تارة ، وبعقوبته لهم به تارة ، وإليهم انتهت غايته ووقوعه ، فتأمل هٰذا الموضع كما ينبغي ؛ فإنه يحل عنك إشكالات حار فيها أكثر الناس ، ولم يهتدوا إلى الجمع بين الملك والحمد والعدل والحكمة .

المسلك الثالث : مسلك الرحمة ؛ فإنها هي المسؤولية الشاملة التامة للموجودات كلها ، وبها قامت الموجودات ، فهي التي وسعت كل شيء ، والرب وسع كل شيء رحمةً وعلماً ، فوصلت رحمته إلى حيث وصل علمه ، فليس موجودٌ سوى الله تعالى إلا وقد وسعته رحمته ، وشملته ، وناله منها حظٌّ ونصيب ، ولكن المؤمنون اكتسبوا أسباباً استوجبوا بها تكميل الرحمة ودوامها ، والكفار اكتسبوا أسباباً استوجبوا بها صرف الرحمة إلى غيرهم .

فأسباب الرحمة متصلة دائمة ، لا انقطاع لها ؛ لأنها من صفة الرحمة ، والأسباب التي عارضتها مضمحلة زائلة ؛ لأنها عارضة على

---

(١) الحشر: ١٩ .

(٢) المائدة: ٤١ .

أسباب الرحمة، طارئة عليها.

وإذا كان كل مخلوق قد انتهت إليه الرحمة ووسعته؛ فلا بد أن يظهر أثرها فيه آخراً كما ظهر أثرها فيه أولاً؛ فإن أثر الرحمة ظهر فيه أول النشأة، ثم اكتسب ما يقتضي آثار الغضب، فإذا ترتب على الغضب أثره؛ عادت الرحمة، فاقتضت أثرها آخراً كما اقتضته أولاً؛ لزوال المانع، وحصول المقتضي في الموضعين.

ومما يوضح هٰذا المعنى أن الجنة مقتضى رحمته ومغفرته، والنار من عذابه، وهو مخلوق منفصل عنه، ولهٰذا قال تعالى:

﴿نَبِّىء عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيْمُ وأَنَّ عَذابي هُوَ العَذابُ الأَلِيمُ﴾[1].

وقال: **﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقابِ وأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**[3].

فالنعم موجب أسمائه وصفاته، وأما العذاب؛ فإنه من مخلوقاته المقصودة لغيرها بالقصد الثاني، فهو سبحانه إذا ذكر الرحمة والإحسان والعفو؛ نسبه إلى ذاته، وأخبر أنه من صفاته، وإذا ذكر العقاب؛ نسبه إلى أعماله، ولم يتصف به.

فرحمته من لوازم ذاته، وليس غضبه وعقابه من لوازم ذاته، فهو

---

(١) الحجر: ٤٩.

(٢) المائدة: ٩٨.

(٣) الأنعام: ٦٥.

سبحانه لا يكون إلا رحيماً، كما أنه لا يكون إلا حيّاً عليماً قديراً سميعاً، وأما كونه لا يكون إلا غضباناً معذِّباً؛ فليس ذٰلك من كماله المقدس، ولا هو مما أثنى به على نفسه وتمدَّح به.

يوضح هٰذا المعنى أنه كتب على نفسه الرحمة، ولم يكتب عليها الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، ولم يسبقها الغضب ولا غلبها، ووسعت رحمته كل شيء، ولم يسع غضبه وعقابه كل شيء، وخلق الخلق ليرحمهم لا ليعاقبهم، والعفو أحب إليه من الانتقام، والفضل أحب إليه من العدل، والرحمة آثر عنده من العقوبة، ولهٰذا لا يخلد في النار مَن في قلبه أدنى مثقال ذرة من خير، وجعل جانب الفضل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وجانب العدل السيئة فيه بمثلها، وهي معرضة للزوال بأيسر شيء.

وكل هٰذا ينفي أن يخلق خلقاً لمجرَّد عذابه السرمدي الذي لا انتهاء له ولا انقضاء، لا لحكمة مطلوبه إلا لمجرد التعذيب والألم الزائد على الحد، فما قدر الله حق قدره من نسب إليه ذٰلك؛ بخلاف ما إذا خلقهم ليرحمهم، ويحسن إليهم، وينعم عليهم، فاكتسبوا ما أغضبه وأسخطه، فأصابهم من عذابه وعقوبته بحسب ذٰلك العارض الذي اكتسبوا، ثم اضمحلَّ سبب العقوبة، وزال، وعاد مقتضى الرحمة، فهٰذا هو الذي يليق برحمة أرحم الراحمين، وحكمة أحكم الحاكمين.

ومما يبيِّن هٰذا أن الجنة يدخلها مَن لم يعمل خيراً قط، ويدخلها من لم يُنشئه الله تعالى فيها، ويدخلها مَن دخل النار أولاً، ويدخلها الأبناء بعمل الآباء.

وأما النار؛ فذٰلك كله منتفٍ فيها، ولا يدخلها مَن لم يعمل شرّاً قط، ولا ينشىء الله تعالى فيها خلقاً يعذبهم من غير جرم، ولا يدخلها مَن يدخل الجنة أولاً، ولا يدخلها الذرية بكفر الآباء وعملهم.

وهٰـذا يدلُّ على أنها خُلقت لمصلحة مَن دخلها؛ لتذيب فضلاته وأوساخـه وأدرانه، وتطهره من خبثه ونجاسته؛ كالكير الذي يُخْرِج خبث الجواهر المنتَفَع بها، ولمصلحة من يدخلها؛ ليردعه ذكرها والخبر عنها عن ظلمه وغيِّه.

فليست الداران عند الله سواء في الأسباب والغايات والحكم والمصالح.

يوضح ذٰلك: أن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا لحكمة، ولا يضع عذابه إلا في المحل الذي يليق به؛ كما اقتضى شرعه العقوبات الدنيوية بالحدود التي أمر بإقامتها؛ لما فيها من المصالح والحكم في حق صاحبها وغيره، وكذٰلك ما يقدِّره من المصائب والآلام فيها من الحكم ما لا يحصيه إلا الله؛ من تزكية النفوس، وتـطهيرها، والردع، والزجر، وتعريف قدر العافية، وامتحان الخلق؛ ليظهر مَن يعبده على السراء والضراء ممَّن يعبده على حرف... إلى أضعاف ذٰلك من الحكم.

وكيف يخلو أعظم العقوبات عن حكمة ومصلحة ورحمة [مع] أن مصدرها عن تقدير أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين؟!

والجنة طيبة لا يدخلها إلا طيب، ولهٰذا يدخل النار من أهل التوحيد مَن فيه خَبَثٌ وشرٌّ، حتى يتطهر فيها، ويطيب، ومَن كان فيه دون ذٰلك؛

حُبس على قنطرة بين الجنة والنار، حتى إذا هُذِّبَ ونُقِّي ؛ أُذن له في الدخول.

ومعلوم أن النفوس الشريرة الظالمة المظلمة الأثيمة لا تصلح لتلك الدار التي هي دار الطيبين، ولو رُدَّت إلى الدنيا قبل العذاب ؛ لعادت لما نُهيت عنه، ولا تصلح لدار السلام التي سلمت من كل عيب وآفة، فاقتضت الحكمة تعذيب هٰذه النفوس عذاباً يطهِّر نفوسهم من ذٰلك الشرِّ والخبث، ويكون ذٰلك العذاب مصلحةً لهما، ورحمةً بهم، وهذا معقول في الحكمة، أما خلق نفوس لمجرد العذاب السرمدي، لا لحكمة ولا لمصلحة ؛ فتأباه حكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

○ الوجه العشرون:

قوله: «وإذ خلقني فَلِمَ كَلّفني السجود لآدم وقد علم أني أعصيه».

فيقال له: كفى بك جهلاً ولوماً أن سميت أمره وطاعته التي هي قرة العيون وحياة النفوس تكليفاً، والتكليف إلزام الغير بما يشقُّ عليه ويكرهه ولا يحبُّه ؛ كما يقول القائل: لا أفعل هٰذا إلا تكلُّفاً، ولا ريب أن هٰذا لما كان كامناً في قلبك ؛ ظهر أثره في امتناعك من الطاعة، ولو علمت أن أمره سبحانه هو غاية مصلحة العبد وسعادته وفلاحه وكماله ؛ لم تقل: إنه كلفك بالسجود، ولعلمت أنه أراد به مصلحتك ورحمتك وسعادتك الأبدية، وقد سمى الله تعالى أوامرَه عهوداً ووصايا ورحمة وشفاءً ونوراً وهُدى وحياة:

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اسْتَجِيْبُوا للهِ وللرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لِمَا

﴿يُحْيِيكُمْ﴾[1].

فتأمل الفرق بين هٰذا الخطاب وبين قول القائل: إنه دعاهم بأمره إلى تكليف ما لا يطيقونه ولا يقدرون عليه؛ لا لحكمة، ولا لمصلحة، ولا لصفة حسنة في الأمر تقتضي دعاءهم إليه.

فـ [الله] لم يأمرك حاجةً منه إليك، ولا عبثاً، ولا سدى، وكأنك لم تعرف أن أوامره رحمة ونعمة ومصلحة، ونواهيه حمية وصيانة وحفظاً.

وهل وُفِّق للصواب من أمره سيده بأمر ينفذه، فقال له: لم أمرتني بذٰلك؟ وهلَّا تركتني ولم تأمرني؟

فمن أضل من هٰذا العبد سبيلاً؟!

○ الوجه الحادي والعشرون:

أنه سبحانه لما كان يعلم منك من الخبث والشر الكامن في نفسك ما لا يعلمه غيره، وكان ذٰلك موجباً لمقته لك، ولم يكن يُجْري عليك ما تستحقُّه بمجرَّد علمه السابق قبلُ؛ من غير أن يُظْهِر للملائكة ما يُحمد به ويُثنى عليه ويُعذر به إذا طردك عن قربه وأخرجك من جنته، فأمرك بأمره، فخرج منك الداء الدفين بمقابلته بالمعصية ومنازعته سبحانه رداء الكبرياء، فاستخرج أمرُه منك الكفرَ الخفيَّ والداء الدَّويَّ، وقام عذره في نفوس أوليائه وملائكته بما أصابك من لعنته، وجرى عليك من نكاله وعقوبته، وصرت في ذٰلك إماماً لمن كان حاله حالك.

---

(١) الأنفال: ٢٤.

فهٰذا من بعض حكمه في أمره لمن علم أنه لا يطيعه، فإنه لو عذبه وطرده بما يعلمه منه من غير أن يُظْهِر غيرَه؛ لوجد هو وغيره للقول سبيلاً، وقال: لو أمرتني؛ لأطعتك، ولكن عذبتني قبل أن تجربني، ولو جربتني؛ لوجدتني سامعاً مطيعاً، بل من تمام حكمته ورحمته أنه لا يعذبه بمعصيته حتى يدعوه إلى الرجوع إليه مرة بعد مرة، حتى إذا استحكم إباؤه ومعصيته، ولم يبق لقولٍ فيه مطمع، ولا للموعظة فيه تأثير، وأُيِسَ منه؛ حقَّ عليه القول، وظهر عذرُ مَن عذَّبه للخليقة وحمدُه وكمالُه المقدس.

قال مختصره محمد بن الموصلي عفا الله عنه:

«وهٰذا الوجه أحسن من الوجه الأول وأصوب، والله تعالى أعلم».

○ الوجه الثاني والعشرون:

قوله: «وإذا أبيت السجود له؛ فلم طردني وذنبي أني لم أر السجود لغيره؟».

فيقال لعدو الله: هٰذا تلبيس إنما يروج على أشباه الأنعام من أتباعك، حيث أوهمتهم أنك تركت السجود لآدم؛ تعظيماً لله، وتوحيداً له، وصيانةً لعزته أن تسجد لغيره، فجازاك على هٰذا الإجلال والتعظيم بغاية الإهانة والطرد، وهٰذا أمرٌ لم يخطر ببالك، ولم تعتذر به إلى ربِّك، وإنما كان الحامل لك على ترك السجود الكِبْر والكفر والنخوة الإبليسية، ولو كان في نفسك التعظيم والإجلال لله وحفظ جانب التوحيد؛ لحملك على المبادرة إلى طاعته، وهل التعظيم والإجلال إلا في امتثال أمره؟!

ولقد قام لك من إخوانك أصحابٌ يحامون عنك، ويخاصمون ربَّهم

فيك، وينوحون عليك؛ اعتذاراً عنك، وتظلماً من ربك، كما فعل صاحب «تفليس إبليس»[1] في كتابه؛ فإنه يقول فيه ما ترعد منه قلوب أهل الإيمان خوفاً وتعظيماً لله من الاعتذار عنك، وأن ما فعلته هو وجه الصواب، إذ غِرْتَ على التوحيد أن يحملك على السجود لغيره، وأنك لم تزل رأس المحبين قائد المطيعين، ولكن:

إذا كَانَ الـمُـحِـبُّ قَليلَ حَظٍّ
فَمَـا حَسَـنَـاتُـهُ إلَّا ذُنُـوبُ

ويا لله! لقد قال هٰذا الخليفة منك، والولي لك، ما لم تستحسن أن تقوله لربك، ولا تظنه فيه.

○ الوجه الثالث والعشرون:

قوله: «وإذ قد أبعدني وطردني؛ فلم سلَّطني على آدم حتى دخلتُ إليه وأغويته فيها».

فيقال له: هٰذا تلبيسٌ منك على مَن لا علم له بكيفية قصتك.

---

(١) للشيخ عز الدين عبدالسلام بن أحمد المقدسي المتوفى سنة (٦٧٨هـ)، وقد طالعناه وحققناه، وهو لا يخلو من سقطات أشعرية وشطحات صوفية؛ تعقبناه عليها بفضل الله، ومن الذي تصفو مشاربه؟! وما ذكر في «مختصر الصواعق المرسلة» عنه أورده على لسان إبليس، ثم كر عليه رادّاً مفنداً، وقد أجاد وأفاد في مواطن كثيرة، فانظر مثلاً قوله (ص ٢٧): «فلما كان إبليس أول من أيس من رحمة الله، ولبَّس على عباد الله، ودنس الطريق إلى الله بمعصية الله...» إلخ. وقد صدر عن دار ابن الجوزي، وهو الأول في هٰذه السلسلة، فراجعه.

خلق الله تعالى آدم، وقد علم سبحانه أنه خلقه ليجعله خليفة في الأرض، ويستخلف أولاده، إلى أن يرثها ومَن عليها، ولم يكن سبحانه لينزله إلى الأرض بغير سبب؛ فإنه الحكيم في كل ما يأمر به ويقدره ويقضيه، فأباح لآدم جميع ما في الجنة، وحمى عنه شجرة واحدة، وقد وَكَّلَ الله تعالى بكل واحد من البشر قريناً من الشياطين؛ لتمام حكمته التي لأجلها خلق الجن والإنس، وكنت أنت قرين الأب لتمام الابتلاء، فاقتضت حكمته وحمده سبحانه أن يبتلي بك الأبوين لسعادتهما وتمام شقوتك، فخلَّى بينك وبين الوسوسة لهما لينفذ قضاءه وقدره السابق فيك وفيهما وفي الذرية، وإذا كان سبحانه قد أجرى ذريتك من ذريته مجرى الدم[1] امتحاناً لهم وابتلاء؛ فهكذا امتحن بك الأبوين مدة حياتهم، فلم تكن لتفارقهما إلا بالموت؛ كحال ذريتك مع ذريتهما.

○○○○○

(١) إشارة إلى حديث «إنها صفية» المتفق عليه، وقد أفردته في جزء لطيف سميته «التعليقات الوفية على حديث إنها صفية»، وهو قيد الطبع.





الفهارس

١ ـ فهرس الآيات القرآنية

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
	وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى	٩٤	٢٧
الكهف	إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها	٧	٩٣
مريم	ولا يظلمون شيئاً	٦٠	٨١
طه	ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن	١١٢	٨٠
الأنبياء	أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون	٢١	٨٦
	لا يسأل عما يفعل	٢٣	٧٩و٨٥
الحج	لن ينال الله لحومها ولا دماؤها	٣٧	١٠٥
الشعراء	وما رب العالمين	٢٣	٥٤
النمل	وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون	١١٨	٩٩
القصص	يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري	٣٨	٥٥
العنكبوت	الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا	١-٣	٩٤
سبأ	وما كان له عليهم من سلطان	٢١	٣٣
يّس	والشمس تجري لمستقر لها	٣٨	٧٠
الصافات	طلعها كأنه رؤوس الشياطين	٦٥	٣٧
صّ	إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين	٧١-٧٦	—
	أنا خير منه	٧٦	٤٤
	خلقتي من نار وخلقته من طين	٧٦	٤٠
	فأنظرني إلى يوم يبعثون	٧٩	٢٥
	فبعزتك لأغوينهم أجمعين	٨٢-٨٣	٣٦
غافر	فأخذهم الله بذنوبهم	٢١	٨٢
	مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم	٣١	٢٦
فصلت	قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في	٩	٧٠
	من عمل صالحاً فلنفسه	٤٩	٨٠
الشورى	ليس كمثله شيء	١١	٨٦
	وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم	٣٠	٨٢
الزخرف	أم أنا خير من هٰذا الذي هو مهين	٥٢	٢٧

○○○○○



٢ ـ فهرس الأحاديث والآثار

○○○○○



٣ - فهرس الأعلام المترجم لهم

○○○○○

٤ ـ فهرس المصادر والمراجع

ـ «ابن قيم الجوزية؛ حياته وآثاره»: بكر بن عبدالله أبو زيد، مكتبة المعارف، الرياض.
ـ «إعلام الموقعين»: ابن قيم الجوزية، دار الجيل.
ـ «البداية والنهاية»: ابن كثير، مكتبة المعارف.
ـ «الترغيب والترهيب»: المنذري، دار الكتب العلمية.
ـ «التعليقات الوفية على حديث إنها صفية»: سليم الهلالي، قيد الطبع.
ـ «تفسير القرآن العظيم»: ابن كثير، دار المعرفة.
ـ «تفليس إبليس»: عز الدين عبدالسلام بن أحمد المقدسي، دار ابن الجوزي، الدمام.
ـ «التقريب»: ابن حجر، دار المعرفة.
ـ «تنزيه الشريعة المرفوعة»: ابن عرّاق.
ـ «التوحيد»: ابن منده، طبع السعودية.
ـ «الجامع»: ابن وهب، طبع ليدن.
ـ «جامع البيان في تفسير القرآن»: ابن جرير، دار المعرفة.
ـ «الجامع لأحكام القرآن»: القرطبي.
ـ «الحب والبغض في الله»: سليم الهلالي، دار ابن القيم، الدمام.
ـ «حلية الأولياء»: أبو نعيم، دار الفكر.
ـ «خزانة الأدب»: البغدادي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
ـ «زاد المسير في التفسير»: ابن الجوزي، المكتب الإسلامي.
ـ «درء تعارض العقل والنقل»: ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، مكتبة ابن تيمية، مصر.
ـ «دقائق التفسير»: ابن تيمية، مؤسسة علوم القرآن.
ـ «ذكر أخبار أصبهان»: أبو نعيم، طبع ليدن.
ـ «السنن»: أبو داود، دار الفكر.
ـ «السنن»: الترمذي، دار إحياء التراث العربي.

- «السنن»: النسائي، دار الكتاب العربي.
- «السنن الكبرى»: البيهقي، دار الفكر.
- «سير أعلام النبلاء»: الذهبي، مؤسسة الرسالة.
- «شرح السنة»: البغوي، المكتب الإسلامي.
- «شرح صحيح مسلم»: النووي، دار إحياء التراث العربي.
- «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة»: ابن قيم الجوزية، دار العاصمة، الرياض.
- «الضعفاء الكبير»: العقيلي، دار الكتب العلمية.
- «العظمة»: أبو الشيخ الأصبهاني، دار العاصمة، الرياض.
- «العلم»: أبو خيثمة، دار الأرقم، الكويت.
- «فتح الباري شرح صحيح البخاري»: ابن حجر العسقلاني، دار الفكر.
- «فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير»: الشوكاني، دار المعرفة.
- «القياس بين مؤيديه ومعارضيه»: عمر سليمان الأشقر، الدار السلفية، الكويت.
- «الكامل في ضعفاء الرجال»: ابن عدي، دار الفكر.
- «الكنى والأسماء»: الدولابي، طبع الهند.
- «الكواكب الدراري بشرح البخاري»: الكرماني، دار إحياء التراث العربي.
- «اللآلىء المصنوعة»: السيوطي، دار المعرفة.
- «لسان الميزان»: ابن حجر، دار الفكر.
- «لوامع الأنوار البهية»: السفاريني، طبع قطر.
- «مجمع الزوائد»: الهيثمي، دار الكتاب العربي.
- «مجموع الفتاوى»: ابن تيمية، طبع السعودية.
- «المدخل إلى السنن»: البيهقي، دار الخلفاء، الكويت.
- «المسند»: أحمد بن حنبل، دار الفكر.
- «المسند»: بتحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، مصر.
- «مشكل الآثار»: الطحاوي، دار الكتب العلمية.
- «مفتاح دار السعادة»: ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية.

- «مقامع الشيطان»: سليم الهلالي، دار ابن الجوزي، الدمام.
- «معالم التنزيل»: البغوي، دار المعرفة.
- «الملل والنحل»: الشهرستاني، دار المعرفة.
- «موارد الظمآن»: الهيثمي، دار الكتب العلمية.
- «الموضوعات»: ابن الجوزي، دار الفكر.
- «وفيات الأعيان»: ابن خلكان، دار صادر.

○○○○○



٥ ـ فهرس المواضيع والفوائد

بين يدي الكتاب

حجة إبليس

○○○○○

مطابع ابن تيمية بالقاهرة هاتف ٨٦٤٢٤٠

اقرأ من منشورات دار ابن الجوزي

- «أشراط الساعة»: تأليف الشيخ يوسف الوابل.
- «تقريب العقيدة التدمرية»: تأليف الشيخ محمد بن عثيمين.
- «تمييز المحظوظين عن المحرومين»: تحقيق علي حسن علي عبدالحميد.
- «تهذيب جامع العلوم والحكم»: إعداد سليم الهلالي.
- «الجامع المفهرس لأحاديث وكتب الشيخ الألباني»: إعداد سليم الهلالي.
- «حلية طالب العلم»: تأليف الشيخ بكر أبو زيد.
- «حلاوة الإيمان في ضوء القرآن والسنة»: تأليف سليم الهلالي.
- «الحياء في ضوء القرآن والسنة»: تأليف سليم الهلالي.
- «الحوادث والبدع»: تحقيق علي حسن علي عبدالحميد.
- «خصائص جزيرة العرب»: تأليف الشيخ بكر أبو زيد.
- «الرياء ذمه وأثره»: تأليف سليم الهلالي.
- «شرح آية الطهارة»: للشيخ محمد بن عثيمين.
- «شرح دعاء القنوت»: للشيخ محمد بن عثيمين.
- «صحيح الوابل الصيب»: إعداد سليم الهلالي.
- «الغربة والغرباء»: تأليف الشيخ سليمان بن فهد العودة.
- «الفتاوى المهمات في العقائد والغيبيات للشيخ محمد شلتوت»: إعداد علي حسن علي عبدالحميد.
- «مجالس فتيان الإسلام»: تأليف سليم الهلالي.
- «معجم المناهي اللفظية»: تأليف الشيخ بكر أبو زيد.
- «مقامع الشيطان في ضوء القرآن والسنة»: تأليف سليم الهلالي.
- «من إقامة الصلاة»: للشيخ محمد بن عثيمين.
- «المنتقى النفيس من تلبيس إبليس»: إعداد علي حسن علي عبدالحميد.
- «من فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين في الصلاة».
- «موارد الأمان المنتقى من إغاثة اللهفان»: إعداد علي حسن علي عبدالحميد.
- «هجر المبتدع»: تأليف الشيخ بكر أبو زيد.



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com